(الكتـاب العـاشـر)

الفصل الأول

يتناول كيف عهد جلالة الملك إلى دوق أركوس بإخضاع مسلمى بقاع رُندة الجبلية، وما تم اتخاذه بشأنهم.

فى أعقاب مغادرة السيد أنطونيو دى لونا لمدينة رُندة، كما أسلفنا فى الفصل الثالث من الكتاب التاسع، شرع الجنود المتمردون الذين انفصلوا عن الركب ومكثوا فى رفقة أهالى المدينة، فى التجول عبر الأراضى لنهب القرى والبلدان. أما المسلمون، الذين استشاطوا غضبًا، واقتنعوا بأقوال من باتوا يفرون من البشرات، فقد بدأوا فى شن حرب مفتوحة لدرء تلك الأضرار عن أنفسهم، بعد أن تحرروا من كل المعوقات. جمع الأهالى النساء والأطفال وما تبقى بحوزتهم من مؤن، وصعدوا إلى أكثر بقاع جبل بيرميخا وعورةً، ليحتموا بحصن أربوتى Arbote الذى يقع على مقربة من إستان، وقد جعلوا البحر من خلفهم حتى يتسنى لهم استقبال مراكب الإغاثة التى ستفد إليهم من بلاد المغرب. مضى الرجال من هناك إلى أبواب رُندة، فأثاروا القلاقل فى الأراضى، وسرقوا الماشية، وقتلوا المسيحيين، ليس بوصفهم قطاعًا للطريق ولكن لكونهم أعداءً معلنين.

عندئذ قام جلالة الملك -بوصفه أميرًا عادلاً ومراعيًا لحقوق الناس- بعد أن تنامى إلى علمه أن أولئك الأناس لم يكونوا من المشاركين فى الثورة، وأن السبب فيما حدث يرجع إلى خطأ القائمين على شئون الحرب، بإصدار أوامره إلى السيد لويس كريستوبال بونثى دى ليون -دوق أركوس، وواحد من كبار سادة أندلوثيا شأنًا- لكى يخضعهم ويقبلهم فى كنف جلالته، وأن يردّ إليهم النساء والأطفال والأمتعة التى سُلِبَت

منهم، وأن يقوم -فى أعقاب تجميعهم- بإرسالهم إلى البقاع الداخلية، تبعًا للنسق الذى سيأمره به السيد خوان دى أوستريا. كان جانب من أملاك دوق أركوس يقع فى المناطق الجبلية فى رُندة، وقد توجه الدوق إلى بلدة كاساريس -التى كان يمتلكها- لكى يغتنم تلك الفرصة، ويضحى على مقربة من الثوار إبان التفاوض معهم بشأن الاستسلام. بادر دوق أركوس بإرسال شخص إليهم نقل إليه أنهم يظهرون رغبة فى الاستسلام، وندمهم على ما جرى، أنهم سيرسلون أشخاصًا يتباحثون بشأن إحلال السلام أينما وكيفما يؤمرون، وأنهم سوف يستسلمون. لم يمض وقت طويل حتى أرسل المسلمون رجلين بارزين من أصحاب المقام الرفيع بينهم يدعيان العربيكى **Alarabique** وأتايفار **Atayfar**، حيث هبط كلاهما إلى صومعة تقع خارج حدود كاساريس، وقد رافقهما رجال آخرون ذوو شأن بارز من أهالى القرى الثائرة.

خرج الدوق للحديث معهم فى حشد صغير من الرجال لكيلا يثير استياءهم وليظهر لهم ثقته فيهم. وقد تمكن من إقناعهم بكفاءة، فأجابوه بنفس العبارات التى كانوا قد بعثوا بها إليه من قبل، وسلّموه بعض المذكرات الممهورة التى تتضمن أمورًا يتعين منحها لهم. وقد انصرف بعد أن قال لهم إنه سيخطر جلالة الملك بما جاء فيها، وتركهم مفعمين بالامل. ثم أعقب ذلك بإرسال خطاب إلى جلالة الملك يعلم فيه بما وصلت إليه الأمور، كما بعث إلى جلالته بالمذكرات التى قدّمها له المسلمون. قبل أن يرجع إليه الرسول بالجواب، صدرت إليه أوامر تفيد بأن يقوم بجمع الرجال من مدن أندلوثيا المتاخمة لرُندة، وأن يصبح على أهبة الاستعداد إذا ما لزم الأمر لشن الحرب فى تلك الجبهة، فى حال رفض المسلمين لتسليم أنفسهم؛ حيث كان جلالة الملك قد أصدر مرسومًا ملكيًا فى الحادى والعشرين من شهر أغسطس إلى المدن وسادة الإقطاع فى أندلوثيا، آمرًا إياهم أن يصبحوا طوع أمر السيد خوان دى أوستريا بكل ما يتسنى لهم حشده من مشاة وفرسان، بالإضافة إلى التزود بمؤن تكفى لمدة خمسة عشر يومًا، وهى الفترة التى بدت كافية للانتهاء من المهمة التى ينتوون الاضطلاع بها.

فى أثناء تجميع الرجال رأى دوق أركوس أنه من المجدى الذهاب إلى حصن كالالوى Calaluy، إذ ربما تدعو الحاجة لاحتلاله فى حال نشوب الحرب قبل أن يتحصن الأعداء بداخله؛ ونظراً للأهمية التى يمثلها ذلك الحصن، فقد قام الدوق فى غضون أيام قلائل بإرسال فرقة من المشاة لحراسته. فى تلك الآونة وصلت إلى الدوق أوامر من جلالة الملك تمنح الثوار كل ما طلبوه فى مذكراتهم تقريباً. بادر البعض بتسليم أنفسهم فى أعقاب ذلك، على الرغم من أنهم لم يجلبوا سوى قدر ضئيل من الأسلحة، قائلين إن من مكثوا فى الجبل لم يدعوهم يحضرون ما تبقى منها. كان من بين المسلمين رجل شرير يدعى ميلتشى Melchi، وكان ينسب إليه الهرطقة، وقد فر من سجون محاكم التفتيش، وذهب إلى تطوان ثم عاد منها[1]. قام ذلك الرجل بحشد عامة الأهالى من الجهلاء -الذين كانوا قد عزموا على تسليم أنفسهم- وحملهم على العدول عن رأيهم، حيث أكد لهم أن كل ما يقوم به العربيكى وأتايفار هو خدعة، وأنهما قد حصلا على تسعة آلاف دوقية من دوق أركوس، وأنهما قد باعا فى مقابلها أرضهما وأمتهما والرجال الذين يدينون بديانتهما؛ كما أن السفن قد أتت إلى جبل طارق، وأن مدن وسادة أندلوثيا قد تمردوا على الحكم، وأنه قد تم إعداد الحبال التى سيُشنق بها الرؤوس المدبرة للثورة، وسيتم تقييد الآخرين وإجبارهم على تنفيذ عقوبة التجديف على ظهر السفن إلى الأبد، كما أنه سيتم تعريضهم للجوع والجلد بالسياط والبرد، دون أن يصبح لديهم أى أمل فى مصير آخر.

أسفرت تلك الكلمات، والثقة الكبيرة التى كان يتمتع بها قائلها بين الأشرار، فى سهولة اقتناع أولئك العوام؛ فحملوا السلاح فى مواجهة العربيكى، وقتلوه هو وأحد مسلمى بلاد المغرب الآخرين الذى كان يدين برأيه؛ ومنذ ذلك الوقت أضحت ثورة الأهالى أشد مما كانت عليه من ذى قبل، وعندما كان البعض يرغبون فى تسليم أنفسهم، كان ميلتشى يحول بينهم وبين القيام بذلك عن طريق التهديد. أرسل أهالى

(١) بعض الموريسكيين الذين هاجروا إلى بلاد المغرب عادوا إلى إسبانيا سراً. (المراجع)

بني حـابس Bena Habiz رجـلاً مـسلمـاً يدعى البـرقـوشي Barcochi يطالب بتطبـيق المرسوم والعفو الملكي عليهم لرغبتهم في الاستسلام، فأعطاه دوق أركوس رسالة إلى قائد الجنود الموجودين في حصن مونتيمـايور (الجبل الأكبر)، يأمره فيـهـا أن يوليه عنايتـه هو ورفاقـه، وأن يرافقـهم حتى يبلغهم مكانًا آمنًا؛ بيد أن رجالنا –الذين كان لديهم جشع للاستيلاء على مـا بحوزتـه، أو كانت تراودهم رغبة لعرقلة استسلام الثوار الذي سينجم عنه إنهاء الحرب– أردوه قتيلاً في الطريق. أسفر ذلك الانفلات عن تأليب أهالي بني حابس، وتأكيد الحجج التي ساقها ميلتشي، على نحو لم يفلح معه العقاب الذي أنزله دوق أركوس بالجناة عن طريق شنقهم ونفيهم على متن السفن، للحيلولة دون نشوب الثورة بين جميع أهالي البلدة لتسلك الأمـور منحى سيئًا. سوف نتـوقف عن تناول تلك الرواية الآن وسـوف نتطرق إليـهـا في وقت لاحق، وسـوف نستـعـرض الآن الطريقة التي اقتحم بها القائد العام لقوات قشتالة البشرات.

الفصل الثانى

يتناول كيف قام القائد العام لقوات قشتالة بحشد الرجال اللازمين لاقتحام البشرات.

فى خضم الاستعدادات التى كانت تجرى فى وادى آش لتجهيز المؤن والذخائر اللازمة للقوات التى ستقوم باقتحام البشرات من تلك الجبهة، توجه القائد العام لقوات قشتالة للقيام بالأمر ذاته فى مدينة غرناطة، فبلغها فى أوائل أيام شهر أغسطس. أقام القائد العام فى مقر المحكمة الملكية، وقد وفر له رئيس محاكم التفتيش السيد بدرو دى ديثا إقامة مترفة، حيث كان الرئيس يؤدى واجبه على أكمل وجه مع مستشارى جلالة الملك. رافق القائد العام فى رحلته كل من: السيد ميغيل دى مونكادا، والسيد بيرناردينو دى مندوثا -ابن كونت كورونيا Coruña-، والسيد لوبى أورتادو دى مندوثا، وسادة آخرون من أقربائه وأصدقائه. كان القائد العام مخولاً من قبل جلالة الملك لتجنيد المحاربين فى المدينة، واستدعائهم من الإقليم، واتخاذ كافة الإجراءات الضرورية لشن الحرب، بوصفه نائبًا للقائد العام؛ وقد تولى من ذلك المنطلق رئاسة المجلس فى أثناء وجوده هناك، فعيّن رؤساء وقادة المشاة وباقى المناصب الأخرى، كما أسند إلىّ منصب مورد الجيش التابع له.

فى أعقاب تهيئة الرجال وإعدادهم، والتزود بكميات وفيرة من المؤونة والذخائر، وإيداع قدر كبير منها فى أورخيبا والبادول، انطلق الجيش فى ثانى أيام شهر سبتمبر من عام ١٥٧٠، وبلغ موضع البادول مع غروب شمس ذلك المساء، حيث لحقت به هناك القوات الآتية من المدن، فتعاظم قوام الجيش حتى بلغ عدده خمسة آلاف من الرجال

البارعين وجيدى التسليح. كان قائدا جنود المشاة القادمين من غرناطة هما السيد بدرو دى بارغاس، وبارتولومى بيريث ثوميل؛ أما قوات المدن السبع، والبقاع التى تدخل فى نطاقها، فترأسها السيد ألونسو ميخيّا؛ بينما رافق محاربى لوشة، والحامة، وقلعة يحصب السيد غوميث دى فيغيروا -المأمور القضائى لتلك المدن. كما حضر السيد فادريكى مانريكى مع رجال أنتيقيرة، وقدمت إحدى فرق المشاة من بلدة أرشدونة برفقة قائدها إنييغو ديلغادو دى سان بيثينتى **Íñigo Delgado de San Vicente**. وقد جاء أيضًا كل من: فرانثيسكو دى أرّويو، وليانْدرو دى بالينثيا **Leandro de Palencia**، وخوان لوبيث، ولورينثو رودريغو **Lorenzo Rodríguez**، وديبغو دى أورتيغا **Diego de Ortega**، وخوان خيمينيث **Juan Jiménez** مع كتائب الجنود النظاميين التابعة لهم؛ كما أتى القائد لورينثو دى أبيلا مع ثلاثمائة من حملة البنادق ممن كانوا مع كونت تينديا فى حصن الحمراء. هذا وقد حضر -علاوةً على الألوية التابعة للمدن- فرقة من الرماة يترأسهم المواطن الغرناطى لاثارو مورينو دى ليون.

لم يتوقف القائد العام فى البادول سوى يومًا واحدًا لدفع الرواتب، وقد أمرنى أن أمنح الجنود أربع حصص من الطعام تكفيهم لمدة أربعة أيام، لكى يقوموا بحملها فى أجربتهم، حتى لا تشغل مكانًا فى الأجولة التى ستنقل فيها المؤن والذخائر الخاصة بالجيش؛ ثم توجه الجيش فى وقت متأخر للغاية من رابع أيام شهر سبتمبر للإقامة فى بلدة أثيكيا (الساقية). تحرك الجيش من هناك باتجاه لانخارون وأورخيبا دون أن تقابله أية معوقات فى الطريق، وقد توقف فى ذلك المعسكر ليوم واحد حتى يرتاح الرجال، ولانتظار من كانوا قادمين للحاق بهم، ولكى يتسنى للقادة اتخاذ القرار حول الطريق الذى ينبغى عليهم أن يسلكوه. وصلت فى ذلك اليوم ألوية فرسان قرطبة التى كانت موجودة فى لاس ألبانيولاس، بالإضافة إلى سبعمائة وثلاثين من جنود لاس غواخاراس والمنكب وشلوبانية يترأسهم القائد أنطونيو دى بيريّو. فى أثناء وجود الجيش فى أورخيبا، انطلق السيد خوان دى أوستريا من مدينة وادى آش فى اليوم السابع من شهر سبتمبر، وذهب إلى قلهرّة التى احتشد بها الرجال الذين سيدخلون إلى البشرات من تلك الناحية للإعداد لذلك الأمر. وقد توجه فى الصباح الباكر من ذلك اليوم ثلاثة

آلاف ومائتان من المشاة وثلاثمائة من الفرسان إلى ميناء لوه لقضاء الليلة به، وقد حملوا فى أجربتهم حصص طعام تكفيهم لأربعة أيام، ورافقهم ألف وخمسمائة جوال كبيرة الحجم محملة بالمؤن والذخائر.

كان قادة أولئك الجنود هم: السيد بدرو دى باديًا -القائد الميدانى لوحدات الجيش الإسبانى فى نابولى-، ومواطن باداخوث خوان دى سوليس Juan de Solís- القائد الميدانى لوحدات الجيش الإسبانى التى تم استدعاؤها من فرنسا[٢]-؛ حيث كانت تلك الألوية قد حاربت مع ملك فرنسا فى قتاله ضد اللوثريين امتثالاً لأوامر جلالة الملك، ثم حضرت فى أعقاب ذلك للانضمام إلى معسكر السيد خوان دى أوستريا فى أندرش؛ بالإضافة إلى أنطونيو مورينو، والسيد رودريغو دى بينابيديس، وقائدى سلاح الفرسان تيُو غونثاليث دى أغيلار والسيد الغرناطى غوميث دى أغريدا. وقد توجهت القوات فى اليوم التالى إلى بالور، حيث حضر إلى هناك السيد لوبى دى فيغيروا مع ثمانمائة من الجنود وأربعين من الفرسان الذين كانوا بحوزته فى أندرش. كان القادة يحملون أوامر كتابية حول ما يتعين عليهم القيام به، وكانت قد صدرت إليهم الأوامر بأن يتولى كل منهم قيادة القوات ليوم واحد يطيعه خلاله القادة الآخرون بوصفه قائدًا عامًا، وذلك للحيلولة دون نشوب الخلافات بين القادة، ريثما ينضمون إلى جيش القائد العام لقوات قشتالة الذى ينبغى على الجميع الامتثال لأوامره.

كان هناك التزام شديد فى العمل بتلك القواعد، وكان يتم فى كل يوم إرسال جنود المشاة والفرسان للإغارة على الأراضى، وتخريب محاصيل الذرة، وإلحاق كل الأضرار الممكنة بالأعداء. تم أسر وقتل العديد من الأشخاص خلال تلك الغارات، كما استولى الجنود على كميات كبيرة من الماشية؛ وقاموا لاحقًا ببيع تلك الغنائم وتقسيم المقابل النقدى على القادة والجنود، كما تم منح خمس القيمة لمن كان يتولى قيادة القوات فى اليوم الذى جلب فيه الجنود الفىء كما لو كان قائدًا عامًا. فى أعقاب إرسال موكب

(٢) استدعاء قوات إسبانية من فرنسا وإيطاليا يدل بوضوح على أن ثورة الموريسكيين كانت تشكل خطراً حقيقيًا على الوضع الداخلى فى إسبانيا. (المراجع)

إمدادات ضخم من ذلك المعسكر إلى قلهرّة، وجلب كمية جيدة من المؤن والذخائر، مضت القوات إلى بلدة كاديار حيث صدرت إليهم الأوامر بالانتظار هناك إلى حين قدوم القائد العام. وقد قامت القوات بشن العديد من الحملات من ذلك الموضع، عادت على القادة والجنود بالخير الوفير دون أن يلاقوا مقاومةً من أحد.

فى تلك الآونة انطلق القائد العام لقوات قشتالة من أورخيبا، ولمّا كان قد ورد إليه تنبيه فى الطريق حول احتشاد المقاتلين المسلمين فى الأراضى الموجودة فى بايى دى إنفييرنو (وادى جهنم)، فقد قام بإخطار رئيس محاكم التفيتش السيد بدرو دى ديثا لكي يأمر السيد فرانثيسكو دى مندوثا –قائد معقل غيخار– بأن يتجه إلى تلك الجبهة مع أكبر عدد يتسنى له جمعه من الرجال. وصل جيشنا إلى بوكيّرة فى اليوم الثامن من شهر سبتمبر، وقامت الفرق بقتل ثلاثة من المسلمين، وقطع سائر الأشجار ومحاصيل الذرة المختلفة فى تلك المقاطعة؛ ثم مضى الجيش فى الصباح الباكر من اليوم التالى إلى بيتريس فى فيريّرة. توجهت فرق الجنود للإغارة على الأراضى، فقتلوا خمسة مسلمين، وأسروا خمس من النساء، وقضوا ذلك اليوم بأسره فى قطع الأشجار وتدمير المحاصيل. عندما تنامى إلى علم المسيحيين أن المسلمين قد عاودوا الدخول إلى ديارهم فى بوكيّرة عقب رحيل المسيحيين منها، دفعهم ذلك السبب – بالإضافة إلى رغبتهم فى الانتهاء من تدمير المزروعات– إلى توجه جمع غفير من الرجال ليغيروا فجراً على تلك الطاعة، حيث تمكنوا من إحداث نوع من الأثر.

مكث الجيش فى بيتريس منذ التاسع من شهر سبتمبر وحتى اليوم السابع عشر من الشهر ذاته، حيث عثر الجنود فى منازل تلك الطاعة على كميات وفيرة من الزبيب، والتين، والجوز، والتفاح، ونبات القسطل، وغيرها من الفواكه التى تشتهر بها تلك الأراضى، والعسل، وشيء من القمح والشعير –وإن كان قليلاً. كما أن الجنود لم يتوقفوا عن البحث عن الأماكن الخفية التى خبأ فيها المسلمون الثياب. توجه موكبان كثيفان من ذلك المعسكر لجلب المؤن التى تم إيداعها من أجل ذلك الغرض فى أورخيبا. لم يضيع القائد العام الوقت دون أن يولى عنايته للأمور الأكثر أهمية، والتى تمثلت

فى شن الحرب -من الآن فصاعداً- بواسطة كتائب من الجنود غير النظاميين تجوب الأراضى للبحث عن الأعداء، ووضع حاميات من الجنود فى المواضع المهمة، فى أثناء إقامة حصن فى محيط كنيسة بيتريس، وإيداع خمسمائة من الجنود به على غرار الحامية. كما أرسل ألفًا وخمسمائة من المشاة وعشرين من الفرسان -مقسمين إلى كتيبتين- للإغارة فجراً على بلدة تريبيليث فى اليوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر، بعد أن أصدر إليهم أوامر بالمكوث هناك على مدار يومين لتدمير الأراضى الزراعية والسعى لنحر كل من يعثرون عليه من المسلمين؛ وقد رافق السيد ميغيل دى مونكادا تلك القوات.

توجه السيد ألونسو ميخيًا لمهاجمة بعض الكهوف الكائنة على الجهة الأخرى من النهر، والتى تمر أسفل بيتريس، بينما ذهب قادة آخرون إلى مواضع أخرى؛ وقد أحدثوا جميعًا آثارًا طيبة، وعادوا محملين بغنائم من الأسيرات المسلمات ورؤوس الماشية، بعد أن خلّفوا وراءهم عدداً من القتلى المسلمين الذين كانوا يجوبون الأراضى بمفردهم. كما قاموا بتخريب سائر الأراضى الزراعية، وجلب بعض الأسرى -كان من بينهم رجل مسلم نبّه المسيحيين إلى كهف موجود فى أحد الجبال لم يكن أحد ليتمكن من العثور عليه. وجد الجنود في الكهف شيئًا من الدقيق والقمح والشعير كان المسلمون قد خبّأوه، وقد عرض عليهم الأسير المسلم أن يكشف لهم عن كهوف أخرى، ووعده القائد العام بمنحه حريته فى مقابل ذلك. بيد أن نفراً من الجنود الذين كانوا يرافقونه أردوه قتيلاً بعد أن استشعروا إطلاق النفير، وهو ما أثار ضيقًا شديداً لدى القائد العام، لأنه لم يكن بالإمكان تلافى وجود الكثير من الكهوف السرية، ولم يكن لديه شخص محل ثقة ليبين أماكنها للمسيحيين.

فى أعقاب تأمين الحصن، وجلب المؤن والذخيرة المتبقية فى أورخيبا والبادول، خلّف القائد العام لقوات قشتالة القائد المالقى إيرنان باثكيث دى لوايستى Hernán Vázquez de Loaysti فى ذلك المعقل مع خمسمائة من الجنود، بعد أن أمره بأن يغير على أراضى ذلك الإقليم ويعيث فيها فساداً. وفى الثامن عشر من شهر سبتمبر انطلق

القائد العام صوب خوبيليس، وبعث فى ذلك اليوم بألف ومائتين من المشاة وسبعين من الفرسان ليعاودوا الهجوم على تريبيليث و على ذلك الجبل بأسره، حيث أدرك أن المسلمين قد عادوا إلى تلك النواحى فى حماية الموريسكيين المسالمين الذين طالما ساعدوهم عن طريق إمدادهم ببعض المؤن. توجه الجيش للانضمام إلى الجيش الآخر الذى كان بانتظاره فى كاديار، وذلك بعد أن خلّف وراءه طاعات بوكيّرة وفيريِّرة وخوبيليس وقد منيت بقدر هائل من التدمير وتخريب الأراضى الزراعية، حتى أنه لم يتبق بها ما يمكن الانتفاع به سوى كميات ضئيلة من عرانس الذرة -على الرغم من أن المسلمين كانوا يودون الإفادة منها-، كما كان قد أقام المعقل فى بيتريس من أجل قطع دابر المسلمين والحيلولة دون رجوعهم وفقما يحلو لهم، والقيام بنحر الموجودين منهم فى تلك البقعة. صدرت الأوامر فى ذلك اليوم للقيام بغارات أخرى سوف نسوقها لاحقًا، لأننا سنعير انتباهنا الآن إلى دوق أركوس، الذى لم يكن يهيم دون جدوى فى أرجاء رُندة فى تلك الآونة.

الفصل الثالث

يتناول كيف خرج دوق أركوس ليشن هجومًا على الثوار فى جبل رُندة، وطرده إياهم من حصن أربوتو.

فى نفس الوقت الذى كانت تجرى فيه تلك الأمور فى البشرات، كان دوق أركوس -الذى عهد إليه جلالة الملك بتولى مسألة الثوار فى بقاع رُندة الجبلية[٣]- يتخذ الإجراءات الضرورية لتجهيز جيش ثالث فى تلك المدينة. فجمع أربعة آلاف من المشاة، ومائة وخمسين من الفرسان، وكمية من الزاد والذخيرة تكفى لخمسة عشر أو عشرين يومًا، ثم خرج فى حملة فى اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر، وتوجه للإقامة على بعد فرسخ من حصن أربوتو. كان الأعداء قد حشدوا قواتهم هناك، وهو موقع وعر يصعب الصعود إليه، وقد قامت فيه الطبيعة بوضع تركيبات صخرية وكمية كبيرة من الأحجار المحاطة بالعديد من الجروف والوهاد فوق أكثر قمم ذلك الجبل ارتفاعًا، حتى أنها تبدو وكأنها حصن مصطنع قادر على استيعاب عدد كبير من الأشخاص. خلّف دوق أركوس فى رُندة لوبى دى ثاباتا Lope de Zapata -ابن لويس بونثى- من أجل أن يستقبل بالنيابة عنه المسلمين الذين يفدون لتسليم أنفسهم ويقوم بإرسالهم إلى البقاع الداخلية، حيث أن جلالة الملك لم يشأ قط أن يغلق الباب أمامهم، لأن جلالته لم يكن يهدف سوى لإرساء الهدوء والأمان فى تلك المملكة.

لم يحضر سوى نفر قليل من المسلمين لتسليم أنفسهم، لأنهم كانوا مستائين من مقتل البرقوشى، ومن رؤيتهم لخرق المسيحيين لصكوك الأمان التى منحها دوق أركوس

(٣) انظر الفصل الأول. (المترجمة)

للأهالي في رُندة ومربلة، ووفاة ما يقرب من مائة مسلم من المستسلمين لدى مغادرتهم لبلدانهم. لم يوقف الدوق مسيرته من أجل معاقبة المذنبين، لأن أي تأخير كان سينجم عنه الإضرار بالقضية الأساسية، بيد أنه قام فيما بعد بإخطار جلالة الملك بما جرى، فبعث جلالته قاضيًا تولى محاسبة الجناة. في أولى الليالي التي قضاها الدوق في البقعة التي يطلق عليها فوينفريّا[٤] Fuenfrúa، اشتعلت نيران في المخيم، ولم يعرف مصدرها، وتم بذل جهد بالغ لإخمادها. في اليوم التالي بادر دوق أركوس بتفقد الحصن مع ألف من المشاة وخمسين من الفرسان، وشاهد موقع مبيت الأعداء وأماكن المياه، وذلك من أعلى جبل أربوتو المواجه لها؛ وعلى الرغم من أنهم بدوا وكأنهم خارج تحصيناتهم فإنه لم يهجم عليهم، لأن الوقت كان قد أمسى متأخرًا، كما أنه كان ينتظر وصول القوات الآتية من مالقة.

في اليوم التالي أقام دوق أركوس نقطة حراسة على ذلك الجبل، ليس من دون مقاومة من جانب الأعداء، الذين قاموا خلال بعض الوقت بمهاجمة جنود الحراسة ومعسكر الجيش، وخاضوا معركة بطيئة وموسعة استمرت على مدار ثلاث ساعات. كان قوام المسلمين ثمانمائة رام، وكان بعضهم يمتلك أسلحةً يدوية حادة، فحينما رأوا أن ذراعين من الجنود المسيحيين المسلحين بالبنادق قد احتلوا قمة الجبل، تراجعوا إلى حصنهم بعد أن ألحقوا برجالنا أضرارًا طفيفة، ولحقت بهم هم بعض الخسائر. قام الدوق بتعزيز الحراسة على ذلك الموضع وإضافة فرقتين من المشاة، لكونه موقعًا ذا أهمية، حتى وصول أرّيبالو دي ثواثو –المأمور القضائي لمدينة مالقة– في الثامن عشر من شهر سبتمبر يرافقه ألف من المشاة ومائة من الفرسان. وقد قام الدوق إبان وصوله بتحسين موقع المعسكر، ليضحي أكثر قربًا من الأعداء الذين كانوا يحاولون الإيحاء بامتلاكهم أعدادًا هائلةً من الرجال.

في أعقاب ذلك صدر القرار بالهجوم على الحصن، وفي العشرين من شهر سبتمبر قام دوق أركوس بتوزيع القوات، وأصدر أوامره إلى القادة حول النسق الذي ينبغي

---

(٤) تعني باللغة العربية "العين الباردة". (المترجمة)

عليهم اتباعه عند ارتقاء الجبل، وأوضح لهم الأماكن التى يتوجب عليهم الذهاب إليها: حيث أمر بدرو بيرموديث دى سانتيس أن يحتل برفقة أحد أذرع قوات الدعم قمتى الربوتين المؤديتين إلى الموقع الذى يشغله الأعداء، على أن يقوم القائد بدرو دى مندوثا مع مجموعة أخرى من الجنود بتأمين ظهورهم من الجهة اليسرى. أما الدوق فقد استبقى لنفسه -مع ألف وخمسمائة من المشاة، بالإضافة إلى قوات المدفعية وسلاح الفرسان- تأمين البقعة الكائنة إلى اليمين من قوات بدرو بيرموديث، وهو مكان أقل وعورة وأكثر انكشافًا، حيث يوجد فيما بين الموقعين فضاء يتميز بوعورة التضاريس، كان المسلمون قد أحرقوه حتى يتسنى لهم التجول من أعلى الصخور بشكل أفضل. كما صدرت الأوامر إلى أرّيبالو دى ثواثو لكى يصعد الجبل إلى اليمين من قوات الدوق مع الجنود التابعين له، ويتقدمهم ذراعان من حملة البنادق؛ على أن يمضى أمامه -على الجهة ذاتها- لويس بونثى مع ستمائة من الجنود المسلحين بالبنادق، عبر غابة من أشجار الصنوبر، وهو موقع يعد خاليًا عن المواضع الأخرى.

كان النسق الذى تم الاتفاق عليه هو أنه لدى خروج القوات من المعسكر يحتمى الجميع بسفح الجبل الذى يوجد به الموقع الذى يشغله العدو، وبأحد الأودية التى شكلّها جدول مياه شديد العمق يقع أسفل الجبل؛ ثم يصعد الرجال رويداً رويداً للاحتفاظ بقواهم، على أن يبادروا بالهجوم لدى تلقى الإشارة التى سيتم إطلاقها. على هذا النحو تمت محاصرة الجبل بأسره ما عدا الجزء الموجود عند إستان، والذى لا يمكن فرض حصار عليه لما يتسم به من وعورة؛ وكان رجالنا متلاحمين للغاية حتى أنهم بدوا وكأنهم يمسكون بأيدى بعضهم بعضًا. عقب توزيع الذخيرة على حملة البنادق وتزويد القادة بما يلزم لليوم التالى، أصدر الدوق أوامره إلى بدرو دى مندوثا لكى يتقدمهم مع القوات التى يترأسها بالإضافة إلى عدد من الجنود الممهدين للطريق من أجل توطئة بعض المعابر التى كان يتعين على سلاح الفرسان سلكها. حينما رأى المسلمون أنه قد حاد عن الطريق، وذهب إلى بقعة تراءى لهم أن الجيش لن يتمكن من إغاثته فيها على عجل، انفصل جمع من الرماة عن الركب، وخرجوا مع حلول المساء للاشتباك معه بإطلاق بعض الأعيرة النارية العشوائية، بعد أن تخلف القدر الأكبر من القوات

لينصبوا له كمينًا. كان بدرو دى مندوثا شديد الاعتداد بنفسه، فظن أنه سيستطيع الامتثال للأوامر والبقاء فى موقعه دون التعرض للأخطار، فهب لقتال الأعداء فى استبسال شديد، وقد انفرط عقد الجنود الذين أخذوا يصعدون الجبل بدون نظام، ودون أن ينتظر بعضهم بعضًا؛ بينما كان الأعداء يتراجعون فى بعض الأحيان، ويعيدون تشكيل صفوفهم فى أحايين أخرى، كما لو كانوا يحكمون الخناق على رجالنا لإيقاعهم فى الفخ.

حينما شهد بدرو دى مندوثا الخطر المحدق بجنوده، وأدرك عدم قدرته على درئه -لأنه لم يكن بوسعه إيقاف الرجال-، أرسل تنبيهًا إلى دوق أركوس حول ما جرى، عندما كان ذلك الأخير قد بعث بثلاثة من القادة لإعادة القوات، مما تعين معه خروج الدوق بشخصه إلى أعلى الجبل لتفقد موقع المعركة. اخترق الدوق ومن يرافقه من الرجال، بالإضافة إلى من تسنى له حشده من القوات، جموع الجنود الذين انفرط عقدهم وأخذوا يصعدون الجبل، وكان يتمتع بنفوذ شديد خوَّل له توقيف الجنود غير المنضبطين المنفصلين عن الركب؛ أما المسلمون الذين كانوا قد شرعوا فى الكشف عن أنفسهم فقد احتموا بالحصن، ولمّا كان الليل قد شارف على الحلول فقد أُتيحت لهم الفرصة لإحداث أضرار فادحة. حينما ألفى الدوق نفسه وقد أمعن فى التقدم عندما اكتشف حشود الأعداء المتربصة، وأنه بات من المستحيل أن يستطيع الحيلولة دون صعود الجنود العصاة، أراد أن يستفيد من عدم انضباطهم، فقام مع أكبر عدد تسنى له جمعه من الرجال بالهجوم على الحصن فى آن واحد، وقد دنا منه كثيرًا حتى أنه كان من أوائل من دلفوا إليه.

لم يجرؤ المسلمون على الانتظار، وصاروا يتدلون بالحبال من مواضع متفرقة من الجبل -الذى كان عاليًا وممتدًا-، وهنا تفرق جمعهم: حيث ذهب بعضهم إلى النهر الأخضر، بينما توجه البعض الآخر صوب إستان، كما رحل أناس إلى موندا، وسار آخرون إلى جبل بلانكيًا، بعد أن خلّفوا وراءهم خمسمائة من النساء والأطفال

فى قبضة المسيحيين. وهكذا تم الظفر بحصن أربوتو واسع الشهرة ومهاب الجانب، وإن لم يكن الهجوم قد سار وفقًا للنسق المميز الذى أراد الدوق تطبيقه، كما قُتل بعض رجاله بعد أن قاتلوا المسلمين على مدار ثلاث ساعات أو يزيد. نظراً لانشغال الجنود بجمع الغنائم وحلول المساء لم تتم مطاردتهم، ولكن مع ظهور القمر خرج ألف وخمسمائة من الجنود المسلحين بالبنادق إلى الجهة التى ظن رجالنا أن الأعداء قد فروا إليها، بيد أنهم عادوا إلى المعسكر عندما لم يتمكنوا من العثور عليهم.

الفصل الرابع

ويتناول ما قام به دوق أركوس لاستكمال تلك الحرب حتى عودته إلى رُندة.

فى أعقاب الظفر بحصن أربوتو، منح دوق أركوس الإذن للمأمور القضائى لمدينة مالقة بالرحيل، أمرًا إياه باستكشاف الأراضى، بينما مضى هو مع باقى الجيش إلى إستان فى الثانى والعشرين من شهر سبتمبر، حيث تراءى له أنه من الضرورى إقامة معقل فى ذلك الموضع، الذى يمكن تزويده بما يلزم فى يسر من كل من مدينتى مربلة ومالقة. قام الدوق فى ذلك اليوم بإرسال أربع كتائب متفرقة من المشاة دون رايات أو طبول لشن غارات على الجبل باتجاه المكان الذى تراءى له أنه من الممكن أن يوجد به المسلمون، فقامت ثلاث منها بإحراق ثلاث سفن كبرى كانوا قد أعدوها ليعبروا فيها إلى بلاد المغرب. أما قائد الكتيبة الرابعة – القائد موريبو Morillo– الذى كان الدوق قد أمره بالإغارة على النهر الأخضر، فإنه لم يمتثل للأمر الذى صدر إليه، وتوجه مع رجاله للهجوم على قوات المالح عند إحدى الروابى التى كان أهل المنطقة يطلقون عليها ألبورنو Alborno؛ وقد منى رجالنا بالهزيمة لأنهم لم يكونوا على المستوى المطلوب. بادر القائد بالتراجع إلى أن أصبح على مشارف إستان، التى تقع على مسافة قريبة للغاية من معسكر جيشنا، حتى أنه كان بالإمكان سماع دوى البنادق والأسلحة النارية؛ وعندما راود الدوق الشك فيما حدث، بعث إليه بيدرو دى مندوثا لإنقاذه، وقد تمكن ذلك الأخير من اكتشاف وجود الأعداء، فاكتفى بتجميع نفر من الجنود الذين كانوا قد بادروا بالفرار، حيث أنه لم يكن يرغب فى المضى قدمًا خوفًا من أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كمائن.

توفى القائد مورييو فى أثناء القتال، حيث كان قد عاود الهجوم على المسلمين فى زخم النجدة التى وصلت إليه، وقد قُتل معه الجانب الأكبر من الرجال الذين كانوا يرافقونه. في الوقت ذاته كان القائد فرانثيسكو أسكانيو Francisco Ascanio – الذى كان أرِّيبالو دى ثواثو قد استبقاه فى موندا لشن غارات على تلك الأراضى فى صحبة القوات التابعة لألورا– يشعر بالجشع والرغبة فى الظفر بغنيمة طيبة، فعاد أدراجه إلى أوخين دون انتظار وصول ذلك الأخير، واصطحب معه ستين جنديًا فقط، بالإضافة إلى صاحب الحصن الذى كان يود مرافقته. وقد انقض عليهم المسلمون عند الميناء الكائن أعلى ذلك الموضع، فأردوه قتيلاً هو وصاحب الحصن وما يزيد على ثلاثين من الجنود، بينما لاذ الباقون بالفرار. كما تمكن المسلمون من إلحاق الهزيمة بسرية قوامها مائة جندى تابعة لشريش الفرنتيرة، وكان دوق أركوس قد بعث بها لحراسة رسول كان متجهًا من إستان إلى موندا لكى يحمل من هناك رسائل موجهة إلى جلالة الملك؛ فقتلوا بعض الجنود وسنحت الفرصة للرسول لكى يلجأ إلى موندا.

عندما رأى دوق أركوس أن الجانب الأكبر من حشود العدو موجود فى تلك الناحية، أرسل أوامره إلى أرِّيبالو دى ثواثو لكى يرجع إلى موندا برفقة القوات التابعة لكل من مالقة وبلش؛ ثم كتب إلى السيد سانشو دى ليبيا حتى يبعث إليه بثمانمائة من جنود غاليرا، وأرسل من يأمر بدرو بيرموديث أن يرحل إلى هناك تصاحبه القوات التابعة لرُندة، بينما ذهب هو مع من تبقى بحوزته من الجيش لانتظار وصولهم إلى موندا؛ فلمّا اجتمعت القوات كلها انطلق الجيش صوب أوخين. وقد قابلهم فى الطريق السيد ألونسو دى ليبيا –ابن السيد سانشو دى ليبيا– مع الجنود الثمانمائة. أدرك الدوق أن المسلمين ينتظرونهم على مسافة فرسخ من البلدة، فأمر بدرو بيرموديث أن يسلك الجهة اليسرى مع ألف من الجنود المسلحين بالبنادق، وأن يمضى السيد ألونسو دى ليبيا إلى أوخين مباشرة عبر جبل يدعى نيغرال Negral، بينما سار هو مع الرجال الآخرين باتجاه كورباتشين Corvachin – وهى أراض تتسم بالوعورة الشديدة وبها وفرة من الأدغال. مضى الجميع على تلك الشاكلة حتى بلغوا أوخين –التى كان يوجد بها

المسلمون– فى آن واحد، فلمّا لم يجدوهم أخذوا يتوغلون فى الجبل حتى أضحوا على مشارف فوينخيرولا Fuengirola دون أن يعثروا سوى على آثار لعدد من الرجال فى أماكن متفرقة، لأن المسلمين كانوا قد انتشروا فى البقاع الجبلية.

رجع السيد ألونسو دى لييبا مع رجاله إلى غاليرا لأنه لم يكن هناك ما يقومون به، كما شرع أرّيبالو دى ثواثو فى الإغارة على أراضى مالقة، بعد أن ترك أوامر إلى غابرييل ألكالدى دى غوثون[٥] – وهو رجل متفرد ومتفان فى خدمة جلالة الملك، ومسقط رأسه كاثارابونيلا– لكى يتولى حشد رجال من تلك البلدان ثم يمضى ليتفقد منازل النهر الأخضر، لكى يتمكن من قهر أى مسلم متهور قد يندفع من تلك الناحية. فما كان منه إلا أن اصطحب عشرين فارسًا وعددًا من المشاة وسار يؤمن الأراضى، وقد قام بأمور على قدر من الأهمية لكونه رجلاً متمرسًا فى ذلك المجال. بعد أن أمضى دوق أركوس عدة أيام فى موندا، ونظرًا لهطول الأمطار الكثيفة التى تحول دون مكوث الجيش فى المخيم، ترك حاميات في كل من: كالالوى، وإستان، وموندا، وتولوش، وغنارو Gnaro، وكارتاخيما Cartágima، وخوبريكى؛ ثم رحل إلى مربلة، ومنها إلى رُندة –التى بلغها فى اليوم الخامس من شهر أكتوبر– بانتظار أن ترد إليه أوامر من جلالة الملك حول ما يتعين عليه القيام به فيما بعد. لنعد الآن إلى جيش القائد العام لقوات قشتالة الذى كنا قد تركناه فى البشرات.

---

(٥) ربما كان هذا هو اسمه، وربما كان اسمه غابرييل ويشغل موقع عمدة قرية اسمها غوثون. إن عدم استخدام علامات الترقيم فى النص الأصلى يؤدى أحيانًا إلى هذا الخلط. (المراجع)

الفصل الخامس

ويتناول التقدم الذى أحرزه جيش القائد العام لقوات قشتالة منذ أن اجتمعت صفوف الجيشين وحتى عودته إلى كاديار.

فى ذات اليوم الذى وصل فيه القائد العام لقوات قشتالة إلى كاديار، أرسل وحدات الجيش الإسبانى التابعة لكل من: خوان دى سوليس، وبارتولومى بيريث ثوميل والسيد بدرو دى بارغاس، لتولى مهمة حراسة الأمتعة المتوجهة لجلب الإمدادات من أدرا. كانت القوات قد توجهت إلى تلك الأرجاء مرتين مع السيد بدرو دى باديا وأنطونيو مورينو قبيل مجىء القائد العام، وقامت بنهب بلدة لوكاينينا؛ فكانت الأوامر التى أصدرها إليهم هى أنه ريثما يقوم بارتولومى بيريث ثوميل بالعودة مع موكب الإمدادات إلى بيرخا لتأمينه -لأنه كان يتعين على الرجال المكوث لمدة يوم لتحميل الأمتعة-، تتولى وحدتا الجيش الباقيتان الإغارة على دالياس مع فجر يوم الخميس، وأن تسعيا لقتل كل من يوجد بها من المسلمين وتدمير الأراضى الزراعية؛ على أن تتوجه الوحدتان للانضمام إلى موكب تأمين الأمتعة فى بيرخا يوم الجمعة، ليرجع الجميع إلى معسكر الجيش فى يوم السبت. عاد الجنود الذين كانوا قد توجهوا للإغارة مرة ثانية على طرابلس، وجلبوا معهم مائة وعشرين مسلمةً، وألفين من رؤوس الأغنام، ومائة بقرة، وخمسين متاعًا؛ كما قاموا بقتل عدد من المسلمين. حضر فى اليوم ذاته كل من السيد لوبى دى فيغيروا والسيد رودريغو دى بينابيديس -اللذان كانا قد ذهبا لشن هجمات على السهل- ومعهم ثمانون مسلمة، بعد أن خلّفا وراءهما بعضًا من القتلى المسلمين، وقاما بإحراق ثلاث سفن فى حالة جيدة جداً كان المسلمون قد أعدوها ليعبروا فيها إلى شمال إفريقيا.

حضر كذلك رجال آخرون كانوا قد ذهبوا إلى أرجاء أخرى وشنوا حملات ناجحة للغاية، حتى أنه بحلول يوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر كانت قواتنا قد جلبت إلى المعسكر ألفًا ومائة أسيرة، واستولت من المسلمين على كميات من المواشي والأغنام والأمتعة، وقامت بتدمير الأراضى الزراعية فى محيط الإقليم، وأمنت الأراضى، حتى أنه في اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر تمكن موكبان من الخروج معًا وفى يوم واحد، ليتجه أحدهما إلى أورخيبا والآخر إلى بيتريس لجلب ما بقى بالبلدتين من مؤن، مع وجود ثمانية من وحدات الجيش الإسبانى العشرة خارج المعسكر للإغارة على الأراضى. تم شن حملات على سائر بقاع البشرات دون استثناء السهل أو داليا، كما تم الهجوم على بعضها مرتين أو ثلاث مرات، وأحرق الجنود كميات لا حصر لها من أنواع الذرة المختلفة، وعثروا على كميات ضخمة من القمح والشعير فى الكهوف. أحضر الجنود إلى المعسكر فى ذلك اليوم مائتى مسلمة بعد أن أردوا ما يقرب من ثمانمائة من المسلمين قتلى. أمر القائد العام لقوات قشتالة بإطلاق الرصاص على عشرين مسلمًا، وكان قد قضى بقتل أربعة من رجالاتهم البارزين فى اليوم المنصرم، وقد كان من بينهم ميغيل دى إبريّرا – قائد بيتريس الذى كنا قد ذكرنا آنفًا أن ماركيز مونديخار كان قد عهد إليه بأسيرات خوبيليس[6]–؛ كما لم يتم الإبقاء على حياة أى ممن تم إلقاء القبض عليهم ممن بلغ عمره عشرين عامًا.

شرع الجيش فى إقامة حصون فى كل من: كاديار، وكوخوريو، وبيرتشول، وميثينا دى بومبارون، وخوبيليس، من أجل إيداع جنود بها على غرار الحامية لكى يداوموا على شن الغارات على تلك الأراضى باستمرار، حتى لا يتبقى للمسلمين مواضع يقيمون بها. أسفرت تلك الغارات عن إحكام الخناق والتضييق الشديد على الأشقياء، الذين لم يعودوا يشعرون بالأمان فى جبل أو كهف أو وهد. فى يوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر توجه أحد مواكب الأمتعة إلى قلهرّة لجلب المؤن، وقد اصطحب ما يزيد على ألف مسلمة بحيث تبقى فى المعسكر عدد يقل عن ذلك بعض الشيء،

(٦) انظر الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل الثالث والثلاثين. (المترجمة)

بعد أن كان رجالنا قد ذبحوا أربعمائة آخرين من المسلمين، وأعدموا ستة وثلاثين منهم. تم إلقاء القبض على مائتين وستين فرداً في كهف ميثينا دي بومبارون، وتسبب الدخان الكثيف الذي أحدثه رجالنا في اختناق مائة وعشرين آخرين. كما شُنق ستون شخصاً آخر في كهف ثان يقع على مقربة من بيرتشيل، وكانت بينهم زوجة ابن عبو واثنتان من بناته؛ وكان هو بالداخل، بيد أنه استطاع الخروج من فتحة سرية مع اثنين فقط ممن تمكنوا من اللحاق به. توفي ستة وثلاثين شخصاً في كهف كاساريس، بينما أُلقِي القبض على اثنين وستين فرداً آخر على قيد الحياة في كهف تيار Tíar؛ وقد عثر في الكهوف جميعًا على الكثير من الأسلحة والمؤونة والثياب. تم الاستيلاء على كهوف أخرى أصغر حجماً من المسلمين بقوة السلاح، وقد هجر المسلمون بعض الكهوف الأخرى حينما شهدوا الدمار الذي حل بجيرانهم؛ وفي نهاية الأمر فقد سلبت منهم جيوشنا مأواهم الأخير.

في أعقاب انتهاء القائد العام لقوات قشتالة من إقامة المعاقل الأربعة[٧]، وتركها مزودة بالرجال والمؤن التي تكفيها على مدار شهر، مضى إلى أوخيخار في ثالث أيام شهر أكتوبر، وأودع بها إحدى وحدات الجيش التي ترافقه، كما ترك وحدة أخرى في لاروليس، ليكون هكذا قد أقام بهما معقلين؛ ثم رحل إلى بيرخا وداليياس من أجل أن يقيم معقلين آخرين، لكي يتم الانتهاء من إنشاء الأربعة في آن واحد -كما حدث بالنسبة للمعاقل الأربعة الأخرى-؛ وفي يوم الخامس عشر من شهر أكتوبر كان قد فرغ من إنشائها، وإمدادها بالمؤن والرجال. أرسل القائد العام لقوات قشتالة من مقر إقامته في داليياس السيد بدرو دي باديا مع وحدة الجيش التابعة له، بالإضافة إلى الرماحين المائة التابعين لإيثيخا، من أجل شن غارات على مواضع إينيكس وفيليكس وبيكار، وبعد أن كان ذلك الأخير قد نبح بعض المسلمين الذين كانوا يجوبون تلك الأرجاء، أصدر إليه القائد العام أوامر بأن يمضي إلى كانخايار، ويشن حملات على جبل غادور. وصلت تلك القوات إلى فيليكس مع بزوغ الفجر، وكانوا قد تلقوا تنبيهاً حول وجود عدد

(٧) ذكر المؤلف خمسة معاقل لا أربعة، ولعله سهو. (المراجع)

من المسلمين بها، وقبل أن يبلغوا البلدة خرج المسلمون جميعاً ترافقهم نساؤهم وبنيهم، وساروا إلى مدينة ألمرية يبتغون تسليم أنفسهم. قام رجالنا باقتحام المكان ونهبه، وأسروا بعض النساء والأطفال الذين كانوا قد مكثوا في المنازل.

عندما تم تنبيه بعض رماحي إيثيخا إلى توجه أولئك المسلمين صوب ألمرية، قاموا بملاحقتهم؛ ولمّا كان عدد كبير من رفاقهم قد رحلوا منذ فترة طويلة دون أن يتسنى للباقين اللحاق بهم، أراد الآخرون أن يعودوا أدراجهم. بيد أنه كانت هناك أعداد كبيرة من المسلمين يتنادون للتجمع في الأراضي، حتى أنهم عزموا على المضي قدماً؛ وقد وصلوا إلى المدينة في الوقت الذي كان السيد غارثيّا دى بيّا روّيل قد فرغ فيه من قبول المسلمين والمسلمات الذين سبقوهم إليه. عندما ود الرجال أن يتم منحهم سائر المسلمين كعبيد، لم يرغب السيد غارثيّا دى بيّا روّيل في القيام بذلك، وقال إنهم أحرار بمقتضى المرسوم الذى أصدره جلالة الملك، وإنهم حضروا من أجل تسليم أنفسهم وقد عهد إليه جلالة الملك بقبولهم. دار بعض الأخذ والرد في هذا الصدد، وهو ما نجم عنه إتيان بعض الرمّاحين بأفعال وأقوال غير لائقة، فأمر السيد غارثيّا باعتقالهم. شكا تيّو غونثاليث دى أغيلار إلى السيد خوان دى أوستريا من تلك المسألة، فأرسل سموه قاضياً للفصل في تلك القضية، فأمر بإطلاق سراح الرمّاحين وقضى بمنحهم كل أولئك المسلمين عبيداً لهم.

مكث السيد بدرو دى باديّا والقائد تيّو غونثاليث دى أغيلار في كانخايار لعدة أيام، وقاما بشن غارات على تلك الأراضي قاطبةً وتأمين القرى الخاضعة، إلى أن صدرت إليهما الأوامر بإجلاء قاطنيها ونقلهم إلى البقاع الداخلية. في تلك الآونة قام السيد سانشو دى ليبيا -الذى كان يجوب أرجاء الساحل بالسفن- بإيداع قوات في كل من: بابيتا Bábita، وكاستل دى فيرّو (القلعة الحديدية)، وألبونيول، امتثالاً للأوامر التي صدرت إليه في هذا الصدد. كانت الغارات متواصلة على الدوام، وتم أسر ما يربو على ثلاثة آلاف مسلمة وطفل، وقُتل ما يقرب من ألف وخمسمائة من المسلمين. كما تم الظفر بستة كهوف تتميز بضخامة الحجم، حتى أن رجالنا عثروا في اثنين منها

فقط على حوالى ثمانمائة فرد. أما الكهف الأخير الذى استسلم من به فى العاشر من شهر أكتوبر -وكان موجوداً فى ديتيار Détiar -فقد كان بداخله مائة من أهالى الأراضى المسلمين، وثلاثون من بلاد المغرب، وأحد الأتراك -كانوا جميعًا مدججين بالأسلحة-، بالإضافة إلى ثلاثمائة امرأة وطفل. كما استسلم السيد فرانثيسكو دى كوردوبا -وهو ابن عم ابن أمية، وكنا قد أسلفنا ذكره فى الفصل السادس عشر من الكتاب التاسع- فى كهف أخر يعلو بلدة موركاس المشرفة على البحر؛ وقد استسلم كذلك أحد أشقائه، واثنان من القادة الأتــراك، وواحــد من أبنــاء عمومة ابن عبو الذى استطاع لاحقًا الفرار من قبضة الجنــود الذين كانوا يقتــادونه إلى محبسه. وقد أبقى القائد العام لقوات قشتالة على حياة أولئك الرجال، وأمر فيما بعد باقتيادهم إلى السفن(٨).

عقب القضاء على المعاقل التى سبق الإشارة إليها دون أى مقاومة من الأعداء، الذين أُجبروا على التعرض للفاقة الشديدة، بات أولئك يفرون من كهف إلى آخر برفقة نفر من المعاندين على شاكلتهم؛ فلم يكونوا يجرؤون على المكوث نهارًا فى نفس البقعة التى قضوا بها وقتًا من الليل، لأن القائد العام لقوات قشتالة كان يعاود شن الغارات بوحدات جيشه المنتشرة فى شتى الأرجاء. عقب زيارة المعاقل، توجه القائد العام إلى أوخيخار فى طريق عودته فى السادس عشر من شهر أكتوبر ، ليصل إلى كاديار فى التاسع عشر من الشهر ذاته. وجه رجالنا ضربة إلى المسلمين كانت قاصمة وناجحة كسابقاتها، حيث ظفر رجالنا بالعديد من الكهوف، ورجع الجنود إلى المعسكر ومعهم الكثير من المسلمين والمسلمات الذين ألقوا القبض عليهم؛ وقد قام القائد العام لقوات قشتالة بإرسال بعضهم إلى السفن، وأعدم البعض الآخر، بينما وافق على أن يقوم الجنود ببيع الجانب الأكبر منهم لكى يتربحوا منهم. كان الجزء الغالب من المسلمين الذين تم إلقاء القبض عليهم وقتلهم فى ذلك الوقت ممن حضروا لتسليم أنفسهم فى

(٨) أرسل الرجال ليقضوا عقوبتهم فى التجديف على متن السفن، وكان ذلك أمراً معتاداً آنذاك. (المترجمة)

سند وادى آش، وكان الكثيرون منهم قد عادوا إلى مواضعهم، وعثر الجنود على صكوك الأمان التى مُنحوا إياها فى صدورهم. على الرغم من أنهم قالوا إنهم قد قدموا من أجل جلب أقربائهم وأصدقائهم لتسليم أنفسهم، فإن أقوالهم لم تعد عليهم بالنفع، لأن الأنباء التى وردت من هناك كانت تتنافى معها.

فى أثناء الزيارة التى قام بها السيد دييغو دى ليبيا لأحد المواقع الموكلة إليه خلال تلك الأيام، والتى رافقه فيها تسعة من جنود المشاة المسلحين بالبنادق وخمسون من الفرسان التابعين للواء دييغو ميرلين دى أبالوس Diego Merlín de Avalos، قام كل من: غارثيا الثايكال García el Zaycal، والبيثى دى خيرغال Bayzi de Gérgal، والنجار Naguar، مع مائتين من مسلمى الكتائب التابعة لهم بنصب كمين له، وانتظروه فى أحد المعابر القديمة الكائنة ما بين تابيرناس وخيرغال، عند مهبط بيليلشى Belelche. وقد خرجوا من مكمنهم على حين غرة لحملة البنادق الذين كانوا فى الطليعة وحملوهم على الفرار، وقد تبعهم الفرسان. كان بمقدور السيد دييغو دى ليبيا التراجع فى ذلك اليوم لو كان يرغب فى ذلك، بيد أنه تصدى لهم لكونه فارسًا مغوارًا وبارزًا؛ وقد سعى للحيلولة دون فرار الجنود، وإنقاذ الأمتعة التى كانت تحوى قدرًا من النقود الخاصة بجلالة الملك. بيد أن جهوده ومساعيه الحثيثة لم تسعفه، لأن الطريق التى كان يسلكها كانت ضيقة، ولم يكن بإمكان الخيول التحرك فيها، أو باستطاعة الأمتعة العودة إلى الوراء. جُرح السيد دييغو على إثر تلقيه عيارين ناريين أحدهما فى الذراع والآخر فى الضلوع، فسحبه شقيقه السيد فيليبى دى ليبيا من ساحة النزال رغم إرادته. وقد وضع مسندًا على ظهر فرسه ذاته لكى يستند إليه ويحول دون وقوعه، إلى أن بلغا مدينة ألمرية التى مات بها متأثرًا بجراحه. أثبت ذلك اليوم مدى سوء معدن رجالنا، لأنه فيما خلا السيد فيليبى دى ليبيا، وحامل الإجازة سولير Soler –وكان مستشاره القانونى–، وستة من الفرسان، فقد لاذ الجنود الباقون جميعًا بالفرار وخلّفوا قائدهم وحيدًا فى قبضة الأعداء.

الفصل السادس

ويتناول الأوامر التى أصدرها جلالة الملك بشأن إجلاء كافة الموريسكيين الموجودين فى مملكة غرناطة -سواء المعاهدين منهم أو المستسلمين-، وإيداعهم فى بقاع داخلية.

كان جلالة الملك فى تلك الآونة قد أرسل يأمر السيد خوان دى أوستريا، ورئيس محكمة تفتيش غرناطة بدرو دى ديثا، ودوق أركوس -كلاً على حدة- أن يبادروا بكل ما أوتوا من همة وبأقصى سرعة تتسنى لهم تنفيذ الأوامر التى صدرت إليهم بشأن إجلاء الموريسكيين من مملكة غرناطة -سواء المستسلمين حديثًا أو من لم يقوموا بالثورة- وأن يودعوهم فى أماكن داخلية، لأن الأشخاص القليلين الذين بقوا فى الجبل إذا ما فقدوا الثقة فى إمكانية الاستعانة بهؤلاء، فسينتهى بهم المطاف إلى الاستسلام أو الهلاك. بينما كانت الأوضاع على الحال التى أشرنا إليها سلفًا فى البشرات وبقاع رُندة الجبلية، تلقى السيد خوان دى أوستريا رسالة مؤرخة فى اليوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر، ومحررة فى مدريد، تحوى الأمر الثانى والقرار الأخير فى هذا الصدد. لمّا كانت تلك القضية فائقة الأهمية، فقد اتصل أعضاء المجالس ببعضهم البعض، وقرروا العمل بالمرسوم الذى أصدره جلالة الملك ووضعه قيد التنفيذ قبيل خروج القائد العام لقوات قشتالة من البشرات، حيث أن الموريسكيين لم يعودوا يتوافدون لتسليم أنفسهم، كما أن العديد من المستسلمين صاروا يرجعون إلى الجبال؛ وقد تم الاتفاق على تطبيقه على النحو التالى:

يتوجه إلى قرطبة أهالى كل من: غرناطة، وغوطة غرناطة، ووادى ليكرين، وجبل منتميس، والشرقية، وهاوية مالقة، والبقاع الجبلية لرُندة ومربلة. ومن هناك يتم توزيعهم

على مواضع إكستريمادورا Extremadura، وغليقية، وأقاليمهما. أما أهالى وادى آش، وبسطة ، ونهر المنصورة فيذهبون عبر تشينشيًا والبسيط إلى لامانشا، ومملكة طليطلة، وحقول قلعة رباح ومونتييل، ومنطقة القديس خوان، وفى سائر أرجاء قشتالة القديمة Castilla la Vieja وصـولاً إلى مملكة ليـون. بينمـا ينتـقل أهالى ألمرية بحـرًا -على متن السفن التابعة للسيد سانشو دى ليبيا- إلى مدينة إشبيلية. هذا ولا ينبغى أن يذهب أى من المسلمين للمكوث فى مملكة مرسية، أو ماركيزية بيينا، أو المناطق الأخرى القريبة من مملكة بلنسيـة، والتى كان يوجد بها عدد غفير من الموريسكيين من سكان تلك الأراضى، لكى لا ينضموا إليهم، وأيضًا للخطر الذى سيمثله اتصال بعضهم ببعض. كما يتعين عليهم عدم الإقامة فى قرى أندلوثيا، لأنها تضم الكثيرين ممن اقتيدوا إلى هناك فى بدايات الأمر، والأمر هناك مستقر؛ علاوةً على ذلك فإن هناك صعوبات تتمثل فى إمكانية لجوء من يرغبون فى الهرب إلى الجبال القريبة.

كانت الأوامر التى صدرت إلى الأشخاص المنوط بهم اقتياد المسلمين هى أن تكون أولى نقاط التوقف -عقب مغادرة مملكة غرناطة- فى الأماكن الأكثر موائمة لكى يتم حملهم منها فيما بعد إلى المواضع التى سيمكثون فيها، من أجل مراعاة سلامتهم وراحتهم؛ بحيث لا يبرحوها، أو يتعرضون فيها للسرقة، أو يُحملوا منها إلى جهات أخرى، وهكذا يصيروا هم وأملاكهم فى أمان. وألا يتم السماح بفصل الأبناء عن والديهم، أو النساء عن أزواجهن فى أثناء الطريق أو فى الأماكن التى ينبغى عليهم البقاء فيها، بل أن يكون الأشخاص والمنازل متجاورين. فعلى الرغم من أنهم لا يستحقون مراعاة مشاعرهم، فإن جلالة الملك كان يود الإنعام عليهم بتلك المنة؛ وقد أمر جلالته أن يصحبهم -إلى جانب المحاربين- مندوبون وأشخاص محل ثقة من ذوى المكانة، وأن تكون معهم قوائم ومحاضر بالأفراد الذين عُهد بهم إلى كل قائد، لكى يتولوا نقلهم من بعض المواضع إلى مواضع أخرى، ويمدوهم بالزاد والرجال الذين يرافقونهم؛ كان ذلك يعنى أن المجموعة التى ستنطلق من غرناطة ستتوقف عند المرحلة الأولى.

على ضوء تعجل جلالة الملك في إنهاء المسألة، ولما كان السيد خوان دى أوستريا رجلاً ليس بالمتباطئ، فقد بادر بإرسال الرسل إلى سائر الأرجاء ليستدعى الأشخاص الذين سيتوجب عليهم الاضطلاع بتلك المهمة. وقد أمرهم أن يقوموا فى أول أيام شهر نوفمبر -وهو اليوم الذى تحتفل فيه الكنيسة الكاثوليكية بعيد كل القديسين- بحبس جميع الموريسكيين -بغض النظر عن قدرهم أو مكانتهم- داخل الكنائس الموجودة فى البلدان التى سيتوجهون إليها؛ وأن يرافقهم المحاربون الذين سيتم توزيعهم على الأماكن من أجل ذلك الغرض، حتى يقوموا بإيداعهم فى البقاع الداخلية؛ وقد تم اتخاذ عدد من التدابير الضرورية من أجل أن تتم الأمور فى أجواء أكثر أمانًا. حيث صدرت الأوامر إلى ثلاثة آلاف رجل ينتمون إلى أندلوثيا وغيرها من المناطق الأخرى، ممن كانوا فى طريقهم لأداء واجبهم كجنود حامية فى المعاقل التى كان القائد العام لقوات قشتالة قد قام بإنشائها، لكى يتولوا إجلاء الموريسكيين من مملكة غرناطة أولاً؛ وأنه لزامًا على القائد العام -فى اليوم الذى يتوجب فيه على الجنود حشد الأهالى- أن ينشر قواته ويسيطر على الممرات الجبلية التى يمكن للرجال أن يعودوا عبرها إلى تلك القرى. وينبغى على السيد فرانثيسكو ثاباتا دى ثيسنيروس -سيد باراخاس Barajas الذى حصل فيما بعد على لقب كونت، وأضحى رئيسًا للمجلس الأعلى لقشتالة، وهو ما استتبع شغله لمنصب المأمور القضائى لقرطبة- أن يتوجه مع قوات تلك المدينة إلى غوطة غرناطة. كما يتوجب على السيد ألونسو دى كارباخال -سيد قرية خودار- أن يتولى مرةً أخرى تجميع رجال، على النحو الذى قام به من أجل إغاثة سيرون[٩]، ويتوجه بهم إلى جبهة بسطة.

وصلت قوات أندلوثيا المقسمة إلى جزأين إلى كل من غرناطة ووادى آش فى آن واحد. مضى القائد العام لقوات قشتالة مع جيشه من كاديار إلى بلدة بيتريس فى فيرّيرة، وفى أول أيام شهر نوفمبر كان قد بسط سيطرته على أربعة عشر معبرًا جبليًا، بواسطة أذرع كثيفة العدد من الجنود المسلحين بالبنادق. انطلق السيد فرانثيسكو

(٩) انظر الكتاب السادس، الفصل السادس والعشرين. (المترجمة)

ثاباتا دى ثيسنيروس من مدينة قرطبة فى مساء يوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر، وقد صحبه مائتان من الفرسان وألف من المشاة التابعون للمناطق الخاضعة لنفوذه، ليضحى فى الهندين -وهى إحدى مواضع غوطة غرناطة- فى الثلاثين من الشهر ذاته. كان قائدا سلاح الفرسان هما السيد لويس بونثى وألونسو مارتينيث دى أنغولو Alonso Martínez de Angulo، بينما ترأس قوات المشاة كل من: غوتييرى مونيوث دى بالينثويلا Gutierre Muñoz de Valenzuela، وإيرناندو خيبيكو Hernando Gebico، وبيرو إيرنانديث دى مونتيغرا Pero Hernández de Monegra، والسيد لويس دى كوردوبا، ولويس إيرنانديث دى كوردوبا -الذى كان يتولى منصب قائد الجنود.

كانت تلك القوات جميعها بكامل عتادها وعدتها، وكانت قد تزودت بالأسلحة والخيول، حتى أنها باتت خير ممثل لأبهة مدينتها وقائدها. وكان الجنود يرفعون الرايات والألوية التى تحمل شعار المدينة: وهو أسد متحفز لونه أشقر داكن على خلفية بيضاء، بالإضافة إلى قلاع وأسود تمثل الإطار. كان حملة الدروع يرتدون ثياباً ملونة، أما نافخو الأبواق والعازفون المصاحبون للقائد فقد لبس كل منهم قميصاً من المخمل القرمزى ومعطفًا صغيراً من قماش قرمزى سابغ، وكليهما مزدانان بالشرائط وكانت الحواشي مزركشة بخيوط ذهبية اللون؛ أما عازفوا الطبول والنايات فقد ارتدوا بزات حريرية ذات ألوان زرقاء وصفراء. كان أكثر ما تم ملاحظته بالنسبة لأولئك الرجال هو تنظيمهم الشديد وانضباطهم. كان السيد خوان دى أوستريا قد أصدر أوامره إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، وباقى المندوبين الآخرين الموكل إليهم المسلمين المستسلمين، لكى يتولوا إجلاء المقيمين منهم على مقربة من الجبال إلى أماكن أخرى أكثر بعداً عنها، بعد أن يُفهموهم أنهم يفعلون ذلك بغية عدم تعريضهم للخطر فى أثناء مغادرة رجال القائد العام لقوات قشتالة للبشرات.

فى أعقاب اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة، تم حبس كافة الموريسكيين -رجالاً ونساءً وأطفالاً- داخل الكنائس والأماكن المحددة فى يوم الاحتفال بعيد كل القديسين، على الرغم من أن تلك المسألة جرت فى بعض المناطق فى إطار من التنظيم يقل عما

كان ينبغى الالتزام به. تم إيداع من تبقوا فى مدينة غرناطة، ومن تم تجميعهم فى بقاع وادى ليكرين وغوطة غرناطة، دون إثارة أى قلاقل أو أعمال شغب؛ ثم أُقتيدوا إلى المشفى الملكى فى غرناطة، وتم تسليمهم إلى القادة الموكلين باصطحابهم إلى مواقعهم: حيث حمل السيد فرانثيسكو ثاباتا خمسة آلاف من الأهالى، بينما رافق الباقين السيد لويس دى كوردوبا -قائد جنود تلك المدينة. قُسم الأهالى إلى قسمين، ونُظم كل منها إلى سرايا تضم ألفًا وخمسمائة من الموريسكيين -باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال-، وقد رافق كل سرية مائتان من الجنود وعشرون من الفرسان وأحد المندوبين. اقتاد لويس إيرنانديث دى كوردوبا القسم الأول إلى إكستريمادورا وأراضى بلاسينثيا، بينما توجه القسم الثانى إلى مملكة طليطلة.

كان هناك عدد من الموريسكيين الغرناطيين الذين تم استبقاؤهم فى المرة الماضية، وسعيًا منهم لحدوث الأمر ذاته فى تلك المناسبة قاموا بمساع لدى سيادة رئيس المحكمة بدرو دى ديثا، وتضرعوا إليه لكى يكتب إلى السيد خوان دى أوستريا فى هذا الصدد. وقد أجاب بقوله إنه على الرغم من أن أولئك كانوا قد أظهروا رغبتهم فى خدمة جلالة الملك، فإنه لم ترد إليه أوامر من جلالته تفيد بتفضله عليهم بذلك الأمر فى الوقت الراهن، كما أنه لا يرى الإبقاء عليهم فى مملكة غرناطة. كما أنه كفل لهم -بعد مغادرتهم للمملكة قاطبةً في غضون ثلاثة أيام- أن يدعهم المسيحيون يذهبون لحالهم، مع أسرهم وأملاكهم المنقولة، إلى البقاع والأماكن التى يرغبون فى ارتيادها، كما أنه سيتوسط بشأنهم لدى جلالة الملك، ويتضرع إليه عقب رحيله من المملكة، من أجل أن يأذن لهم فى الرجوع إلى ديارهم. تم حبس أهالى مدينة وادى آش، والأماكن التى تدخل فى نطاقها، وقرى سند وادى آش، على النسق ذاته وفى نفس التوقيت. كما قام دوق أركوس بتجميع من تسنى له منهم فى البقاع الجبلية التابعة لرُندة ومربلة، وبعث بهم برفقة أنطونيو فلوريس دى بينابيديس -المأمور القضائى لجبل طارق- إلى إيّورا، وهناك جمعوهم مع من حضروا من غرناطة إلى مدينة قرطبة.

أحكم السيد ألونسو دى كارباخال -سيد بلدة خودار- قبضته على الموريسكيين المنتمين إلى جبهة بسطة، ونظرًا لأنهم أقل من كان المسيحيون يأمنون جانبهم،

لأنهم كانوا فى معظمهم من الثائرين وممن لجأوا إلى الجبال، فقد قام بتجميعهم فى الكنائس بطريقة سلمية، بعد أن كان قد أودع نفراً من رجاله فى أثناء الليل فى المواضع التى كان يدرك وجود موريسكيين محل ريبة فيها، حيث أذاع أنه يود أن يوزّع عليهم كميات من القمح وثيران الحرث التى سيستخدموها في زراعة الأرض فى هذا العام. وقد تمكن بهذه الطريقة، وأيضاً من خلال إطلاق سراح عدد من الموريسكيين - الذين كان الجنود قد ألقوا القبض عليهم وأحضروهم إليه، لأنهم وجدوهم قد حملوا أسلحتهم وتوجهوا إلى الجبل- من طمأنة الأهالى على نحو دفع الكثيرين منهم، ممن كانوا موجودين بالفعل فى الجبال، إلى العودة لديارهم. وقد صاحبهم فى مسيرتهم إلى البسيط -وهو المكان الذى كان ينبغى عليهم التوجه إليه وفقًا للتعليمات الصادرة إليه.

قام أريبالو دى ثواثو -المأمور القضائى لمدينة مالقة- ومن يرافقه من القوات التابعة لمناطق نفوذه من تجميع الموريسكيين الذين تبقوا فى الأماكن الخاصة به على نحو سلمى أيضاً، بيد أنه أوصل الأمور فى بدايتها إلى درجة عالية من الصعوبة، وكان يرغب فى التوسط بشأن عدد من الموريسكيين الذين لم يكونوا قد قاموا بالثورة، إلا أنه لم يكن هناك من سبيل للقيام بذلك، فاقتادهم -بمقتضى الأوامر التى أُرسلت إليه- إلى أنتيقيرة، وقد عبروا من هناك إلى إكستريمادورا وبلاسينثيا. أما أهالى إيثيخا وقرمونة فقد استاقهما غابرييل ألكالدى دى غوثون إلى تولوش وكاثارابونيلا. فيما يتعلق بالسيدين خوان دى ألاركون وميغيل دى مونكادا -اللذين عهد إليهما السيد خوان دى أوستريا فى تلك الآونة برئاسة معقلى نهر المنصورة- فقد خالفا إلى حد بعيد ما يجب اتباعه حيال إجلاء موريسكيى تلك الجبهة، وهو ما تسبب فى حدوث فوضى عارمة، وشروع الجنود الذين يحملون الأسلحة بين أيديهم فى قتل وأسر الأهالى المستسلمين؛ فلمّا شهد المسلمون ما حدث، قام الكثيرون منهم بحمل السلاح والصعود إلى جبل باكاريس. تولى السيد بدرو دى بادياً حشد موريسكيى جبهته بعد أن عانى تقريبًا نفس القدر من الاضطرابات، لأن الأهالى كانوا مقسمين على أنحاء شتى، مما صعّب من إمكانية حبسهم جميعًا فى الكنائس دون أن يفطن بعضهم إلى حقيقة ما يجرى.

كان ينبغي تجميع كافة الأهالي الآخرين في ثلاثة مواضع. وقد حدثت فوضى عارمة للغاية في أحد تلك المواضع -وهو الذي تواجد به القائد دييغو بينيفاس-، حتى أن الأوضاع أتاحت الفرصة للموريسكيين لكي يثوروا ويحدثوا قلاقل: فأشهر الجنود أسلحتهم وقتلوا ما يقرب من مائتي رجل، ليس من دون حدوث خسائر بين صفوفهم، حيث سقط منهم العديد من القتلى والجرحى. أما من تمكنوا من الفرار فقد صعدوا إلى جبل باكاريس، لينضموا منه إلى جموع الفارين الآخرين، ويشرعوا في إحداث أضرار جديدة. قام الجنود بنهب منازل البلدة، واتخذوا سائر نسائها إماءً، وهو ما دفعنا للاعتقاد بأن جشع أولئك الجند كان هو السبب في تلك الاضطرابات، بيد أن السيد بدرو دي باديا وأدها في مهدها عن طريق إطلاق سراح الموريسكيات، وإرسال من يقتادهن برفقة باقي أهالي الأماكن الأخرى من المستسلمين إلى مدينة ألمرية، ومنها إلى بيرا والبسيط. هذا وقد حمَّل السيد سانشو دي ليبا أهالي ألمرية وأراضيها على متن السفن التابعة له، وأقلّهم إلى مدينة إشبيلية.

وهكذا تم إجلاء الأمة الموريسكية من مملكة غرناطة، ولولا وقوع الاضطرابات التي أشرنا إليها، ما كان سيبقى بها سوى نفر قليل للغاية من أولئك الأفظاظ. وقد قام لاحقًا من بادروا بالفرار -أو الجانب الأكبر منهم- بمعاودة تسليم أنفسهم مرة أخرى، بعد أن أدركوا مدى المعاملة الطيبة التي يلقاها من يتوجهون إلى البقاع الداخلية؛ فتم قبولهم واقتيدوا معهم إلى هناك. أما من لم يرغبوا في الأخذ بتلك النصيحة السديدة فقد لاقوا حتفهم. عبر الكثير من الموريسكيين إلى شمال إفريقيا، وانخرطوا في خدمة ملك فاس عبد الملك Abdul Malic، حيث حاربوا مع قواته تحت مسمى الأندلسيين. وقد لعبوا دورًا ليس بالقليل في إلحاقه الهزيمة بالسيد سيباستيان Sebastián -ملك البرتغال- في الموقعة التي دارت على مقربة من نهر القصر الكبير Alcázar Quibir، حيث توفي بينما هو ذاهب لإعادة تلك الممالك إلى محمد الشريف Mahamete Xerife -ابن عبد الله- الذي كان عبد الملك قد عزله عن الملك بها، وذلك على النحو الذي سنورده في الطبعة الثانية من كتابنا إفريقيا، والتي بمشيئة الرب سترى النور عما قريب.

الفصل السابع

ويتناول قيام السيد خوان دى أوستريا والقائد العام لقوات قشتالة بصرف المحاربين، وصدور الأوامر حول كيفية القضاء على الثوار المتبقين فى الجبال.

فى أعقاب إجلاء الموريسكيين من مملكة غرناطة على النسق الذى أشرنا إليه، وإيداعهم فى البقاع الداخلية، قام القائد العام بتوجيه الرجال الذين كان يتعين عليهم البقاء فى معاقل البشرات، ليتركها مزودة بما يلزمها، بعد أن أصدر إليهم أوامره بعدم التوقف عن شن الحملات على شتى الأرجاء. كما أمر كلاً من: فرانثيسكو دى أرّويو، ولويس دى أرّويو Luis de Arroyo، ورينالدوس Reinaldos، وليآندرو دى بالنثيا، وخوان لوبيث، ودييغو رودريغيث Diego Rodríguez، ودييغو دى أورتيغا، وخوان خيمينيث Juan Jiménez، أن يتوجهوا برفقة الكتائب التابعة لهم من الجنود القرويين للإغارة على الأراضى. كانت تلك الكتائب تأتمر بأمر السيد إيرناندو أورتادو دى مندوثا Hernando Hurtado de Mendoza –الذى يشغل الآن منصب القائد العام لسواحل مملكة غرناطة–، الذى يسعنا أن نقول إنه قد وضع الخاتمة لثورة البشرات، حيث بات يلاحق الثوار المعاندين بشخصه ليلاً ونهاراً، وكان يرافق الكتائب مترجلاً شأنه كشأن كافة الجنود الاستثنائيين، إلى أن قضى عليهم فى الجبال والكهوف حيثما وجدوا.

فى أعقاب اتخاذ القائد العام لقوات قشتالة الإجراءات الخاصة بجبهة البشرات، توجه فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر إلى مدينة غرناطة، وحينما بلغها منح المحاربين التابعين للمدن الإذن فى العودة إلى ديارهم. وكذلك فقد انطلق السيد خوان دى أوستريا

من وادى آش بعد ذلك بخمسة أيام، ليدلف إلى مدينة غرناطة فى الحادى عشر من ذات الشهر، وكان برفقته دوق سيسا. وقد تم استقبال سموه بحفاوة شديدة من قبل كافة أعضاء المحكمة والقائمين على شئون الحرب، لأنهم كانوا فى حقيقة الأمر يكنون له محبةً شديدةً. فى أثناء إقامة سموه فى غرناطة -والتى استمرت على مدار تسعة عشر يومًا- عمل على إصدار الأوامر حول كيفية القضاء على الثوار المسلمين الذين بقوا فى الجبال، وكذلك فى تسريح القادة والجنود الذين خدموا تحت لواء جلالة الملك مقابل أجر، ولم يعد هناك حاجة لوجودهم؛ حيث أمر بدفع الأموال المستحقة لهم، والإنعام عليهم ببعض المنن وفقًا لما هو متاح فى الوقت الراهن -وكان يرغب فى ألا يقل العطاء عن الخدمات التى قدموها خلال تلك الحرب. وبعد أن أصدر أوامره المتعلقة بمواكب الإمدادات التى ينبغى تزويد المعاقل بها فى موسم الشتاء الحالى، والكتائب التى يتعين عليها شن غارات على الجبال بشكل دورى من أجل ملاحقة ابن عبو والثوار الآخرين، انطلق فى الثلاثين من شهر نوفمبر صوب مدينة غرناطة من أجل حضور مجلس جلالة الملك، بعد أن حل محله القائد العام لقوات قشتالة.

أعقب ذلك بفترة قصيرة أن قام دوق أركوس بحشد رجال فى مدينة رُندة من جديد، وذلك بغية الانتهاء من استئصال المسلمين الذين يلحقون الأضرار بتلك الأراضى. فانطلق على أثرهم برفقة ألف وخمسمائة من حملة البنادق من الجنود والرجال التابعين لسادة الإقطاع، بالإضافة إلى ألف من رعاياه، وكل من تسنى له جمعه من الفرسان. كان قوام الأعداء يبلغ ثلاثة آلاف فرد، وكان من بينهم ألفان من الرجال المسلحين بالبنادق يتزعمهم ميلتشى، وقد أظهروا اعتزامهم الموت أو التصدى للهجوم على الجبل. حينما رُفع ذلك الأمر إلى علم دوق أركوس، أصدر أوامره إلى بدرو دى مندوثا لكى يقوم مع ستمائة جندى مسلحين بالبنادق بالتوجه إلى مصب النهر الأخضر عبر سفح الجبل. كما أمر لوبى ثاباتا Lope Zapata أن يذهب مع ستمائة آخرين من حملة البنادق صوب غايمون Gaimon، عند المنطقة الكائنة باتجاه قرى موندا، بحيث يضحى أحدهما على مسافة نصف فرسخ من الآخر؛ بينما شرع هو فى السير فى تلك المساحة الخالية بينهما مع من تبقى من القوات.

قام بدرو بيرموديث الذى كان يتولى الميمنة بإصدار أوامره إلى كارلوس دى بييغاس Carlos de Villegas -الذى كان يضطلع بتأمين إستان وأوخين مع فرقتين من المشاة وخمسين من الفرسان- لكى يسعى هو ومائتان من حملة البنادق إلى السيطرة على أعلى الجبل، وعلى المنطقة الكائنة خلف الموضع الذى يشغله العدو فى آن واحد. كما أمر أرّيبالو دى ثواثو أن ينطلق من مالقة برفقة ألف ومائتى جندى وخمسين من الفرسان، ويتوجه معهم إلى جبهة موندا. انطلقت القوات فى نفس الوقت من الليل، حتى تصبح وقد بلغت الأعداء، الذين تنبهوا إلى الأمر من خلال سماعهم دوى بعض الأعيرة النارية، أو عبر ما نقله إليهم أحد الجواسيس؛ فهجروا الموقع الذى كانوا يحتلونه، وحسنوا من وضعهم بالانتقال إلى المنطقة التى يشغلها بدرو دى مندوثا -وكانت الجبهة الخلفية- لأن مخرجها كان أكثر اتساعًا. شرع الدوق فى ارتقاء الجبل، وبادر بدرو دى مندوثا إلى القتال فى الوقت ذاته، بينما داوم الأعداء على تحسين أوضاعهم. على الرغم من أن الدوق كان يبتعد عن بدرو دى مندوثا قليلاً، فإنه لدى سماع الأعيرة النارية أدرك أنه يقاتل فى تلك الجبهة، فدنا منه عبر سفح الجبل. ولمّا صار على مشارف مكان المعركة القائمة، انقض على الأعداء مع كل من تسنى له جمعه من حملة البنادق والفرسان، بعد أن جعل ولده -السيد لويس بونثى- بالقرب منه.

احتدم القتال لبرهة من الوقت بين كلا الجانبين، ولمّا لم يعد بمقدور المسلمين المقاومة صعدوا إلى أعلى الجبل، ومن هناك غادروا مدحورين بعد أن قُتل منهم ما يربو على مائة شخص، كان من بينهم ميلتشى؛ ولو كانت القوات قد بادرت إلى التحرك فى الساعة التى حددها لهم بدرو بيرموديث وكارلوس دى بييغاس لأحدثت المزيد من الأثر. فى أعقاب ذلك تولى الدوق تقسيم الرجال إلى فرق تسعى إلى اقتفاء أثر المسلمين، فقتلوا منهم ثمانين آخرين حيث لم يعثروا على المزيد من الرجال؛ وبذلك عادت القوات أدراجها إلى رُندة، ووُضعت نهاية للحرب فى تلك الجبهة. لمّا كان لابد للقائد العام لقوات قشتالة من الذهاب فى الحملة التى شنتها قوات التحالف الذى شكّله الأمراء المسيحيون على الباب العالى، بوصفه نائبًا للقائد العام للقوات البحرية بدلاً من السيد

خوان دى أوستريا، فقد أصدر جلالة الملك أوامره إلى دوق أركوس لكى يتولى إنهاء ما يتوجب القيام به فى غرناطة؛ فدخل ذلك الأخير إلى تلك المدينة فى العشرين من شهر يناير فى عام ١٥٧١ لميلاد المسيح.

مكث القائد العام لقوات قشتالة هناك لبضعة أيام قام خلالها بإحاطة دوق أركوس بطبيعة الأوضاع فى البشرات، بوصفه شخصًا على دراية واسعة بتلك الشئون. فقام بتعزيز كتائب الجنود القرويين التى يترأسها السيد إيرناندو أورتادو دى مندوثا، كما أصدر قرارات فى أمور أخرى متعلقة بخدمة جلالة الملك، بعد استعانته واستطلاعه لرأى رئيس محكمة التفتيش السيد بدرو دى ديثا. وبحلول شهر فبراير من ذلك العام توجه إلى البلاط الملكى، الذى قصده أيضًا دوق سوسا عقب قضاء عدة أيام فى ضيعته. تولى السيد خوان إنريكيث قيادة الجنود ورئاسة القوات فى بسطة، بمقتضى الأوامر التى أصدرها جلالة الملك؛ بينما شغل ذلك المنصب السيد ميغيل دى مونكادا فى نهر المنصورة، وقد أحدث رجالنا آثارًا طيبة فى التصدى للمسلمين الذين كانوا قد ظلوا متناثرين فى تلك الأرجاء، حيث أبادوهم بقوة السلاح، وعن طريق تعريضهم للجوع والنكبات. لم يتبق لنا الآن سوى ذكر المصير الذى آل إليه ابن عبو ووفاته، وقد تولى إراقة دمائه فى نهاية المطاف السينيث الأخرق، وهو الثائر الجبلى الشهير الذى كان ابن عبو يوليه ثقة واسعة.

الفصل الثامن

ويتناول وفاة ابن عبو، ونهاية الحرب.

كان ابن عبو فى تلك الآونة يجول هاربًا عبر الجبال الكائنة ما بين بيرتشول وتربيليث، وذلك فى أشد مناطق البشرات وعورة. فكان يختبئ من كهف إلى آخر، حيث لم يتبق بحوزته سوى أربعمائة رجل يتبعونه، وكان أكثر شخصين يوليهما ثقته هما: أمين سره بيرناردينو أبو عامر Bernardino Abu Amer، والثائر الجبلى الشهير غونثالو السينيث -الذى أفردنا له ذكرًا فى مرات أخرى. كان ذلك الأخير قد أمضى أربعة أعوام حبيسًا فى سجون محكمة غرناطة العليا على خلفية قتله لأحد الرجال، وقد أُطلق سراحه قبل اندلاع الثورة بعام واحد؛ فاتجه إلى الجبل مع الثوار الجبليين واقترف هناك العديد من الجرائم الأخرى. حينما أدرك السينيث أنه هالك، صنع مركبًا فى الخفاء ليبحر على متنها إلى بلاد المغرب، بيد أن ابن عبو حمل رجاله على إحراقها، وأمره بألا يهبط إلى المرفأ، وأن يجوب الجبال مع باقى رفاقه. وهكذا تسببت تلك الواقعة، بالإضافة إلى أمور أخرى حدثت فيما بينهم، فى استشعاره للمهانة الشديدة، فبات يضمر عداء خفيًا لابن عبو؛ حتى أنه كان يود -وفقًا لما أكده لنا- أن تسنح له الفرصة للانتقام منه.

حدث آنذاك أن تولى غالاسو روتولو Galaso Rotulo -القائد الذى ينتمى إلى ثيوداد ريال (المدينة الملكية)- قيادة معقلى كاديار وبيرتشول، وكان فى حوزته بعض السجناء الموريسكيين من أجل إعدامهم. عندئذ وصل إلى هناك صائغ غرناطى يدعى فرانثيسكو باريّدو Francisco Barredo كانت تربطه فى العادة علاقات الصداقة

والمعرفة مع موريسكيي البشرات قبل أن يثوروا على الحكم، وكان يحضر أشياء من الذهب والفضة ليبيعهم إياها. كان ذلك الرجل على ثقة من أن الموريسكيين لن يمسوه بسوء نظراً لتلك الروابط، فصار يذهب إليهم أيضاً في وقت الحرب ليشتري منهم الحرير، والذهب، واللؤلؤ، وأشياء أخرى. وبينما كان يجول في أحد الأيام ويستعرض نفراً من المسلمين الذين كان غالاسو روتولو ينوي إعدامهم بنيران البنادق، جرى نحوه أحدهم، وكان صديقاً حميماً له ويدعى بيرناردينو ثاتاهاري Bernardino Zatahari، وأقبل عليه ليقبّل يديه، وراح يقص عليه ما كان من شأنه. فما كان من باريدو إلا أن هدأ من روعه، وحمل الجنود على أن يدعوه يصطحبه ليبيت معه تلك الليلة في الخان الذي يقيم به؛ وعندما سأله عن ابن عبو، وعمن يرافقونه في تحركاته، وعن المكان الذي يحتشدون فيه، قص عليه المسلم بصدق كل ما يدور في هذا الصدد، وكيف أن بيرناردينو ابن عامر والسينيث دي بيرتشول هما أكثر شخصين يضع فيهما ابن عبو ثقته.

كان بيرناردينو ابن عامر هذا صديقاً مقرباً للغاية من باريدو، فظن ذلك الأخير في نفسه أنه إذا ما بعث إليه من يتحدث معه، ويعرض عليه أن يتم العفو عن جرائمه، ومنحه أفضالاً أخرى ينعم عليه بها جلالة الملك، فإن ابن عامر لن يتوان عن تأدية خدمة جليلة، ويقنع ابن عبو بالاستسلام، أو أن يقوم هو بتسليمه حياً أو ميتاً. ههنا سأل باريدو ثاتاهاري إذا ما كان بوسعه الإقدام على عمل رجولي يظفر من خلاله بحريته، فأجابه بأنه يضمن له القيام بكل ما يأمره به في سبيل البقاء على قيد الحياة. عندئذ قال له الصائغ: "عليك أن تذهب حاملاً رسالة مني إلى بيرناردينو أبو عامر، وأن تخبره أن يحضر لمقابلتي في مكان يقع ما بين بيرتشول وتريبيليث. وإذا ما نفذت ذلك الأمر كرجل صالح، وجلبت ليّ الرد، سأعمل على أن تنال حريتك، وأن ينعم عليك جلالة الملك من فضله". فلمّا وعده الرجل المسلم بأن يخدمه بإخلاص، أخبر باريدو غالاسو روتولو بتلك المسألة، وطالبه ألا ينفذ فيه حكم الإعدام ريثما يتوجه هو إلى غرناطة للتباحث في ذلك الأمر مع أعضاء المجلس، فسُر قائد المعقل بذلك. بادر باريدو بالانطلاق صوب غرناطة، وبحث الأمر مع القائد العام لقوات قشتالة -الذي لم يكن قد

غادر المدينة بعد– ومع دوق أركوس؛ واقترح عليهما أن يصدر أوامره –من خلال ذلك المسلم– حول الكيفية التى يسلّم بها ابن عبو نفسه، أو السبيل إلى إلقاء القبض عليه أو قتله.

نظر أعضاء المجلس إلى ذلك الأمر فى بداية عرضه عليهم على أنه غير مؤكد، ولكنهم قرروا –بعد أن شهدوا الإلحاح الشديد الذى أبداه باريّدو، ومدى ضآلة المغامرة التى يمثلها إطلاق سراح واحد من المسلمين– بأن يصدروا إليه أمراً يسلّم إليه غالاسو روتولو الأسير بمقتضاه. فمنحه إياه، وبعث به باريّدو برسالة إلى بيرنارديتو أبو عامر، بعد أن حذره أنه إذا ما ألقى مسلمون آخرون القبض عليه فى الطريق، فعليه أن يخبرهم بأنه فى طريقه للفرار بعد أن هرب من سجن كاديار. كان غونثالو سينيث قد وضع أبراج المراقبة التابعة له حول الجبال التى تضم الكهف الذى يوجد به؛ وعندما أصبح ثاتاهارى على مقربة منها، خرج إليه خمسة عشر جندياً، وألقوا القبض عليه وعرضوه على سينيث. فلمّا سأله هذا الأخير عن المكان الذى أتى منه، قال له إنه هارب من كاديار؛ بيد أن الثائر الجبلى الخطير أدرك فيما بعد أنه يكذبه القول، وهدده بقتله إذا لم يخبره بالحقيقة. لم يجرؤ المسلم على التفوه بشىء آخر، فأخرج الرسالة التى بحوزته وقدمها إليه، ثم قص عليه كل ما جرى.

عندئذ قال له سينيث ألا يخاف، لأنه من الأجدى له أن يعقد تلك الصفقة معه من أن يجريها مع أبى عامر؛ وأضاف أن ذلك الأخير بمجرد سماعه لتلك الرسالة فلابد له من قتله بكل تأكيد؛ وإنه إذا ما كان باريّدو يرغب حقًّا فى عقد ذلك الاتفاق، فسيكون هو أكثر مناسبةً لما ينتويه من أى شخص آخر. وقد حثه على كتمان السر لكى لا يفتضح الأمر أمام المسلمين الذين تولوا إلقاء القبض عليه، فأرسل يستدعى أبا عامر إلى هناك، وأعطاه رسالة باريّدو، فانتابته ثورة عارمة، حتى أنه أراد أن يفتك بالمسلم الذى كان يحملها؛ وكان سيقتله لولا أن أبعده سينيث من أمامه، وقال له إنه لا ينبغى عليه أن يمسه بسوء، لأن ما قام به كان يهدف من ورائه إلى النجاة بحياته. تحدث سينيث فيما بعد سراً إلى ثاتاهارى، وقال له أن يذهب إلى كاديار، ويخبر باريّدو

بالنيابة عنه أن تلك المسألة لن تفلح إذا ما سلك ذلك النهج؛ وأنه سيتولى الأمر بشكل أفضل إذا ما حصل له على عفو عام من قبل جلالة الملك عن كل ما اقترفه من جرائم، وتم تسليمه امرأته وابنة له وكانتا ضمن الأسيرات.

توجه المسلم إلى كاديار، ونقل إلى باريدو ما قال له سينيث أن يخبره به، فذهب لاحقًا لمقابلته ما بين موضعي بيرتشول وتريبيليث. وبعد ان أطالا التباحث في ذلك الصدد، قام سينيث بكتابة رسالة باللغة العربية إلى رئيس المحكمة، يعرض عليه من خلالها أن يحمل ابن عبو على الاستسلام، أو أن يسلّمه حيًا أو ميتًا، في مقابل التأكيد له على الأفضال التي سيسبغها عليه جلالة الملك. كما أنه طلب -بغية الرضا عن تلك الصفقة والتأكد من أنها ليست خدعة- أن ما سيتم الاتفاق عليه والأوامر أو الرسائل التي ستُرسل إليه في هذا الصدد تكون مصاغة باللغة العربية، وبخط يد الأب كاستييو الذي كان يعرفه جيداً. هنالك أدرك دوق أركوس ورئيس محكمة تفتيش غرناطة وأعضاء المجلس أن اقتراح سينيث سيضع نهايةً للحرب. أمروا الأب كاستييو أن يكتب إليه ما يفيد بأن جلالة الملك قد أنعم عليه بما طلب، وأنه لدى تنفيذه لما تعهد به، فإنه علاوةً على تفضله عليه هو بالمن، سوف ينال المسلمون الذين يجلبهم معه حريتهم، وسينعمون ببعض الهبات.

انطلق باريدو من غرناطة في اليوم الثالث عشر من شهر مارس لعام ١٥٧١، بعد أن حصل على تلك الضمانات، إلى جانب رسالة تفيد بصدق أقواله، موجهةً إلى ليوناردو روتولو كاريو Leonardo Rotulo Carrillo -الذي كان يمد يد العون في تلك الآونة من خلال قيادته للجنود وترأسه لحصني كاديار وبيرتشول، على ضوء تغيب أخيه غالاسو روتولو. أرسل باريدو من كاديار من ينبه سينيث إلى مجيئه، وتوجه لمقابلته - يرافقه ليوناردو روتولو- في نفس المكان الذي التقيا فيه في المرة الفائتة. كانت سعادة سينيث بالرسائل التي حملوها إليه غامرةً، بعد أن رأى الرسالة المكتوبة بخط الأب كاستيّو، وأمراً ممهوراً بتوقيع رئيس محكمة تفتيش غرناطة، الذي كان يعرف توقيعه لأنه كان قد رآه في مناسبات أخرى؛ وقد عاد الرجلان المسيحيان إلى بيرتشول بعد أن تعهد لهما المسلم بوفائه بالأمور المنوط به تنفيذها على وجه السرعة.

تم تنبيه ابن عبو إلى تلك اللقاءات التى عقدها سينيث مع بارّيدو، ونظراً لكونه شخصاً نزاعاً إلى الريبة فقد أراد معرفة ما دارت حوله المقابلات. اصطحب ابن عبو أبا عامر وإحدى فرق الجنود المسلحين بالبنادق، وتوجه إلى الكهف الخاص بسينيث عند انتصاف الليل –وكان موضعاً حصيناً فى الجبل يدعى الحسوم Huzum، كائناً ما بين بيرتشول وميثينا دى بومبارون. ترك ابن عبو الرجال بالخارج، ودخل عليه مع اثنين فقط من الجنود، لكى يوارى اصطحابه للرماة بشكل أفضل، وسأله عمن منحه الإذن بالتحدث مع بارّيدو. أجابه السينيث قائلاً: "لقد فعلته بإذن منك يا سيدى. وكنت انتوى الآن المجىء لإطلاعكم على ما اتفقنا عليه. فلتعلم أن نقاشنا كان يهدف إلى تحقيق صالحكم وصالح كل الموجودين هنا، فقد أرسل إلينا رئيس محكمة التفتيش يطلب منا الاستسلام والدخول فى خدمة جلالة الملك، على أن يتفضل جلالته بالعفو عنا، وأن يدعنا نمضى فى حرية لنعيش أينما يحلو لنا. وعلاوةً على ذلك فإنه سيغدق علينا الكثير من الهبات الأخرى، التى بعث بها إلينا ممهورة باسمه فى تلك الورقة". حينما أخرج الرسائل التى حملها إليه بارّيدو ليريه إياها، اشتعل ابن عبو حنقاً، وقال إن الأمر برمته خبث وخيانة، وأراد أن يخرج ليستدعى أبا عامر. بيد أنه لمّا بلغ مدخل الكهف – حيث ترك الجنديين المسلمين مع واحد من أبناء إخوة السينيث يدعى بارتولومى، ورجل آخر من أصهاره– ألفى أحد الرجلين قد قُتل بينما لاذ الثانى بالفرار.

كان برفقة سينيث ستة من الرجال، وكانوا جميعاً من أقربائه، فلمّا رأوا ما يعتزم ابن عبو القيام به أرادوا منعه. وبينما هم يتصارعون معه، دنا منه سينيث من الخلف، وانهال على رأسه بطرف البندقية فى ضربة بالغة الشدة خر على الأرض على أثرها، حيث أجهزوا عليه. عندما أدرك أبو عامر ومن برفقته أنه لم يعد هناك من يقومون بحمايته، ألقى إليهم أتباع سينيث بالجثمان من أعلى صخرة مرتفعة موجودة فى مقابل الكهف؛ بيد أن المسلمين الذين كان ابن عبو قد تركهم هناك لم يكونوا فى أماكنهم، لأنهم كانوا قد ذهبوا لزيارة أصدقاء لهم فى الكهوف الأخرى القريبة من هناك. كانت تلك الفرصة مواتية لتطلعات السينيث كما تمناها، وقد سعت للوقوع بين يديه، على الرغم من أنه لم يكن أمراً مستجداً على ابن عبو أن يتنقل من كهف إلى آخر فى أغلب الليالى،

مع اثنين أو ثلاثة من الرفقاء. فى نهاية الأمر كان أول ما نبه أبو عامر إلى الأمر هو مشاهدته للجثة الهامدة؛ ولما كان أولئك الرجال متقلبى الأهواء ويرتابون فى أنفسهم، فقد ذهب كل منهم لحاله، وقد انضم أكثرهم فيما بعد إلى السينيث من أجل التمتع بالامتيازات التى لديه. أما أبو عامر فلم يشأ أن يستسلم، وقد ألقت الكتائب القبض عليه لاحقًا، ومات مسحولاً بعد أن تم تقطيع جسده إلى أربعة أجزاء.

فى أعقاب موت ابن عبو، قام السينيث بإبلاغ ليوناردو روتولو وفرانثيسكو باريّدو -اللذين كانا فى بيرتشول- بما جرى، وطالبهما بإرسال دابة من أجل نقل الجثمان؛ وعندما تم إرسالها حمل الجثة إلى المعقل، وسلمها إليهما. وقد تم اقتياد الجثمان إلى كاديار، حيث تم شق الجسد وإغراقه بالملح للحيلولة دون صدور رائحة كريهة عنه، لأنه كان لابد من اصطحابه إلى غرناطة. لاحقًا تم إخطار دوق أركوس بالأمر، وعاد الرجلان إلى الجبل، حيث توليا تجميع المسلمين والمسلمات الذين جاءوا من أجل تسليم أنفسهم -وكانوا كثر. فلمّا رجعا إلى كاديار ألفيا السيد خوان رودريغيث دى بيَافويرتى مالدونادو -المأمور القضائى لغرناطة والمجلس الملكى- الذى أتى امتثالاً لأوامر الدوق، بغية المساعدة فى إخضاع أولئك الأشخاص؛ وقد مكث المأمور القضائى فى البلدة من أجل ذلك الغرض، وأمر كلاً من ليوناردو روتولو وباريّدو باقتياد جثمان ابن عبو وجموع المسلمين المستسلمين إلى غرناطة.

دلف الرجلان إلى المدينة فى وسط حشد غفير من الناس، الذين كانوا يرغبون فى مشاهدة جثة ذلك الخائن الذى كان يُلقب بملك إسبانيا. كان ليوناردو روتولو فى مقدمة الموكب، يليه باريّدو على الجهة اليمنى، بينما سار السينيث على الجهة اليسرى حاملاً سيف ابن عبو وبندقيته -وقد اعتلى ثلاثتهم صهوة الجياد. وقد تلتهم الجثة المحملة على أحد الأمتعة، والتى أحاطت بها ألواح من الأخشاب تحت الثياب -فبدا ابن عبو وكأنه على قيد الحياة-؛ وقد سار على طرفيها أقرباء سينيث ببنادقهم وأسلحتهم النارية. مشى وراءهم جميعًا المسلمون المستسلمون مع متاعهم وثيابهم، أما من حمل منهم قوسًا فولاذيًا فقد نزع أوتاره، أما حملة البنادق فقد انتزعوا زنادها. كما أحاط بهم على الجانبين كتيبة لويس دى أرّويو، واحتل خيرونيمو دى أوبييدو -مندوب الجنود فى

هذين المعقلين- مؤخرة الموكب يرافقه لواء من الفرسان. دخل الرجال إلى المدينة بهذا الشكل، وسط وابل من الأعيرة النارية أطلقها حملة البنادق، وقد أجابهم بمثيله سلاح المدفعية التابع لحصن الحمراء؛ وتوجهوا إلى مقر المحكمة، حيث يوجد دوق أركوس، ورئيس محكمة التفتيش بدرو دى ديثا، وأعضاء المجلس، وعدد غفير من السادة والمواطنين.

ترجل ليوناردو روتولو، وفرانثيسكو باريّدو، والسينيث، وصعدوا لتقبيل يدى الدوق ورئيس محكمة التفتيش، الذى قدم له السينيث واجب الاحترام، وسلّمه سيف ابن عبو وبندقيته، قائلاً إنه قد سلك نهج الراعى الصالح، الذى جلب لسيده فروة الأغنام عندما تعذر عليه إحضار رؤوس الأغنام على قيد الحياة. أخذ الدوق الأسلحة، وشكر ثلاثتهم على حسن صنيعهم فى هذا الصدد، وعرض عليهم أن يتوسط بشأنهم لدى جلالة الملك من أجل أن ينعم عليهم بهبات استثنائية. ثم أمر فيما بعد بجر جسد ابن عبو، وتقطيعه إلى أربعة أجزاء؛ وقد تم وضع الرأس فى قفص حديدى يعلو قوس بوابة راسترو **Rastro** المفضية إلى طريق البشرات حيث توجد فى الوقت الراهن. مكث دوق أركوس فى تلك المدينة حتى السابع عشر من شهر نوفمبر من ذلك العام، عندما غادرها إلى دياره بعد أن نُصّب نائبًا للملك فى بلنسية؛ وقد عُهِدَ إلى السيد بدرو دى ديثا رئاسة كل الأمور المتعلقة بالقضاء، والحرب، والممتلكات، والسكان.

لاقى تعمير الأراضى بالمسيحيين بعضاً من الصعوبات فى بادئ الأمر، بيد أن الطمع فى الحصول على الضياع التى أمر جلالة الملك بتوزيعها على القاطنين الجدد، والإعفاءات التى منحهم إياها، يسرت الأمور فيما بعد. وهكذا صار الانتقال إلى تلك المملكة هو محور اهتمام إسبانيا قاطبةً، وقد شنت حرب فى سبيل العقيدة والإيمان؛ وأضحت الجائزة التى نالتها إسبانيا فى مقابل المجهودات التى بذلتها والدماء التى أهرقت فيها، هى اجتثاث الأمة الموريسكية التى كانت قد مكثت بها. آه! يا لها من ساعة سعيدة بالنسبة إليك يا مدينة غرناطة المجيدة، عندما خلّصك الملكان الكاثوليكيان إيرناندو وإيسابيل من قبضة الشيطان! لقد رفعا من منزلتك وزيناك بالمبان المترفة، وأعليا من قدرك وارتقيا بك فى شأن العقيدة السماوية والأمور الدنيوية، ليجعلا من

مساجدك الاحتفالية التى كان يُعبد فيها الزائف محمد دور عبادة مقدسة يُعظم فيها اسم مخلص البشرية. وقد حظيت بدلاً من المفتيين، والفقهاء الشرعيين، والوضوء، وصلواتهم، بأساقفة قديسين، ورهبان، ورجال دين غيورين على عقيدتهم الحقة، ممن يقيمون شعائر القداس الإلهى، ويقدمون القربان إلى قاطنيك، وجعلوك كنيسة سماوية.

لقد جمعا بينك وبين الشعب المسيحى، وجعلا منك ابنة لمن كنت على الدوام عدوة له، وقد أودعاك فى معية الكنيسة الرومانية المقدسة، واسترضياك بالأمراء الكاثوليكيين والرجال المتقين الذين ينتشر من خلالهم إشعاع الإنجيل المقدس. لقد أبعداك عن تخبط القرآنيين، وجعلاك من أتباع العقيدة الحقة بعد أن كنت أستاذة فى الطوائف والزلات. لقد منحاك عوضاً عن القضاة الذين حكموك وأداروا شئونك بقوانين خرقاء لا أساس لها، حكماً سديداً ومأموراً قضائياً ومجمعاً ديرانياً ومحكمة تنظر فى شئون العقيدة ومحكمة عليا تساوى فيها القوانين بين الشباب والشيوخ، يحكم فيها رجال مختارون، وأساتذة فى علوم القوانين، ورئيساً للمحكمة يشرف على ما يجرى فيها، ويأمر بما ينبغى القيام به.

أنت تدينين يا غرناطة لهذين الأميرين الكاثوليكيين أكثر مما تدينين به إلى من قاموا بوضع أساساتك الأولى، حيث أن المعارك الحربية التى عانيت منها لا تعلو على قدر السلام المسيحى الذى تنعمين به فى الوقت الحالى، من خلال الحكم الرشيد لجلالة الملك المسيحى فيليبى -ابن حفيد صاحبى الجلالة- الذى استأصل الإلحاد الذى ظل فى قلوب المتنصرين الجدد من الإسلام فى مملكتك، ليعهد بك فى وقتنا الحالى إلى ولده الملك المسيحى شديد التقى والورع فيليبى، حرة ومحررة من تلك الأمة، لكى تنعمى أكثر مع الشعب المسيحى. وأدعو الرب الذى أنعم عليك بالكثير من الخيرات والرحمات أن يحفظ ويصون ويقى -بمنه- ذلك الأمير المجيد، وأن يبقى مملكتك النبيلة الفاضلة.